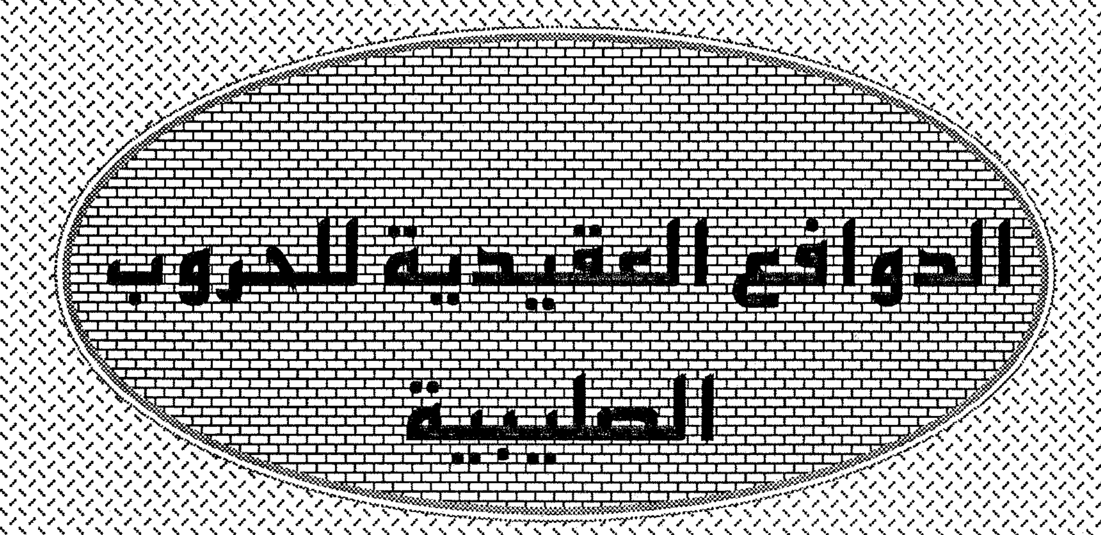

الدوافع العقيدية للحروب
الصليبية


د. الحسين شواط



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة تنجي من اعتقدها وقالها وعمل بها ودعا إليها من مشهد يوم عظيم ، وأشهد أن نبينا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في الله حق جهاده ، أمر بالمعروف بعد أن ائتمر به ، ونهى عن المنكر بعد أن انتهى عنه وقال : " لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم " .

أما بعد :

فإن واقع الأمة الإسلامية اليوم يدعو المخلصين لهذا الدين ، العاملين على رفع رايته إلى كثير من التأمل لاستقراء تاريخ المسلمين والنظر في الأسباب الحقيقية لتخلفهم ، وتحديد الداء ليتبين سبيل النهوض بهذه الأمة بجلاء في هذا العصر الذي عمت فيه الفتن وانحرفت فيه التصورات، ولينتشر الوعي الديني والشعور بالمسؤلية لدى جميع المسلمين .

ونظرا لأن تاريخ أمتنا سلسلة متصلة الحلقات ، فإن هذه العملية تحتاج إلي تحليل واع لمختلف حقبات هذا التاريخ ، نستلهم منها العبر ونستفيد من تجارب أسلافنا ، وبذلك تتم عملية "الإستيعاب الواعي" و" التجاوز المنضبط ".

ولعل من أهم هذه الحقبات تلك الفترة التي اندلع فيها ذلك الصراع العنيف بين المسلمين والصليبيين على أرض الإسلام ، ولايزال المسلمون في تقهقر مستمر منذ ذلك الحين بينما يزداد عدوهم قوة وضراوة ... تلك هي فترة الحروب الصليبية .

ومن هنا جاء هذا المجهود المتواضع لدراسة هذه المرحلة ، واستخلاص العبر منها ، شعورا منّي بالأهمية البالغة لهذا الأمر وما يمكن أن يسهم به في رفع الغشاوة عن أبصار كثير من أبناء المسلمين حول حقيقة الصراع بيننا وبين الغرب الصليبي الحاقد ، ذلك الصراع الذي أذكته العقيدة، ثم تحول إلى هيمنة حضارية خطيرة .

وتبدو أهمية هذا الموضوع كذلك من أن أوضاع المسلمين اليوم تشبه إلى حد بعيد أوضاع المسلمين في تلك المرحلة ، فها هي بلاد المسلمين مقسمة إلى دول متناثرة أو على الأقل غير متعاونة على الخير وغير معتبرة أن الإسلام قضيتها الكبرى إلا من رحم ربي ، تماما مثل ما كان الحال قبيل الحروب الصليبية وابانها .

وهاهي ذي يهود في قلب العالم الإسلامي تهدد كيانه وتتوسع على حسابه كما كانت مملكة بيت المقدس الصليبية من قبل .

كما أننا نجد اليوم بعض حكام المسلمين يتهيبون من مواجهة قضية فلسطين بالحل الإسلامي السليم ويداهنون اليهود كما وقع إبان الحروب الصليبية من بعض الحكام تجاه عباد الصليب .

فلعلنا إذا أخذنا العبرة من تلك الحوادث ووعينا الدرس عن صلاح الدين وإخوانه ننتصر اليوم كما انتصر أسلافنا من قبل ، فتستعيد أمة الإسلام مجدها ودورها الحضاري في ريادة البشرية .

ثم إن الملاحظ - بحسب اطلاعي - ان جل من كتبوا في هذا الموضوع جاءت كتاباتهم أقرب إلى السرد التاريخي منها إلى استخلاص العبر التي يمكن أن نستفيدها من ذلك الدرس القاسي ، ومعلوم أن الوقائع التاريخية يقرؤها الناس لمجرد التسلية في كثير من الأحيان ولايكلفون أنفسهم عناء استخلاص النتائج العملية ، ومن هنا كان لابد من وضع أيديهم عليها لنسهل عليهم السير على الطريق القويم . ومحور هذه العبر وتلك النتائج هو أن القوم واجهونا باسم الدين - ولايزالون - فلماذا نترك ديننا لنواجههم بعصبية جاهلية لاتزيدنا إلا تشرذما وهوانا ؟

وأعتقد أن الكتابة في هذا الموضوع تعتبر وقوفا على ثغرة من ثغرات حصن الإسلام ، و أرجو أن يكون هذا البحث دافعا لذوي الاختصاص والباع الطويل في هذا المجال ليكتبوا فيه بتوسع، وحبذا لو ينبري أحد المتخصصين في التاريخ والحضارة لكتابة بحث معمق يقارن فيه بين فترة الحروب الصليبية وبين المرحلة التي نعيشها الآن من مختلف الجوانب : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وذلك لدى الجهتين الإسلامية والصليبية .

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم وأن يبرم لهذه الأمة أمر رشد لتعود من جديد إلى ريادة العالم وفق تعاليم الوحي المعصوم ، إنه خير مسئول وأكرم مأمول .

المؤلف



١ - بين يدي البحث

١- أهمية دراسة الحروب الصليبية :

لعل أهمية دراسة الحروب الصليبية ترجع إلى أن هذه الحروب تعتبر تجربة هامة وخطيرة في تاريخ الإسلام والمسلمين . وهي ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج ، إنما هي تجربة كبرى مليئة بالمآسي والدروس والعبر والعظات ، وهذا يتطلب منا أن ندرسها بعين فاحصة وبعقل متدبر متأمل لنستفيد من أخطاء الماضي فلا نعيدها ، ونتمكن من مواجهة أخطار الحاضر والمستقبل ونتغلب عليها ..

والغريب في الأمر أنه ما إن انتهت الحروب الصليبية في القرن الخامس عشر حتى ظهرت نتائجها متناقضة غريبة بالنسبة للمسلمين والغربيين حيث إنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلا عقبها في البلاد الإسلامية ، بينما أعقبها مباشرة نهضة شاملة في الغرب الأوروبي وهي أساس نهضته الحديثة . وهذه ظاهرة تسترعي الانتباه وتستحق أن نتأملها جيدا .

ومن المعروف أن هناك معايير أساسية انتقلت بسببها حضارة المسلمين إلى الغرب ولكن الثابت في التاريخ أن ترجمة العلوم والمعارف من العربية إلى اللاتينية نشطت بالذات في عصر الحروب الصليبية وأن المركز الأول لتلك الحركة كان إسبانيا حيث أخذ المسيحيون يحاربون المسلمين في قوة وعنف وكلما استولوا على بلد وجدوا أنفسهم أمام ثروة ضخمة من آلاف المخطوطات في مختلف الدراسات .

هذا إلى جانب أن الحروب الصليبية قد ألهمت الغرب الأوروبي نظرة جديدة واسعة إلى الحياة ، فالخروج من نطاق العزلة الواضحة التي عاش فيها المجتمع الأوروبي في العصور المظلمة هو أهم ما أفادته أوروبا من الحركة الصليبية فضلا عن نمو روح الكشف والاختراع عند الأوروبيين .

وتبدو أهمية هذه الحروب أيضا من أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي في الشرق الأدنى اليوم ، هي أوضاع مشابهة إلى حد بعيد للأوضاع التي عاشها أجدادنا منذ حوالي تسعة قرون مما يحثنا على دراسة هذه الحروب بكل واقعية وجدية وعزم .

نحن اليوم نواجه دولة اليهود التي أقامها الاستعمار في أرض فلسطين ، ويحرص الغرب دائما على مساندتها وإمدادها بالمال والسلاح والرجال ، ليمكنها من المضي في أكل جسد العالم الإسلامي . إنه التاريخ يعيد نفسه ، ففي نهاية القرن الحادي عشر وجد أجدادنا أنفسهم أمام دولة غريبة قامت في البقعة نفسها من أرض الشام وحرص الغرب أيضا على تزويدها بكل ما تحتاجه ليضمن لها البقاء والاستمرار .

وإذا كانت يهود تهدف اليوم إلى إقامة دولة للصهاينة تمتد من النيل إلى الفرات ، فإن الصليبيين في العصور الوسطى لم يكادوا يثبتون أقدامهم في فلسطين حتى شرعوا يتوسعون في كل اتجاه بل لقد وصلوا إلى شواطئ الحجاز لهدم الكعبة في مكة المكرمة ومقام الرسول صلى الله عليه



وسلم في المدينة المنورة ..

وإذا كانت البلدان العربية الإسلامية قد ابتليت اليوم ببعض من دفعهم الحرص على عروشهم وجاههم إلى الإعتراف بيهود شوكة في قلب الكيان الإسلامي ومهادنتها علنا أو محالفتها سرا ضد قضية الإسلام في فلسطين ... إذا كان هذا قد وقع اليوم .. فإننا نسمع في عصر الحروب الصليبية عن بعض من دفعتهم شهوة الحكم والخوف من تيار الوحدة الإسلامية إلى محالفة الصليبيين في بيت المقدس وطلب معونتهم ضد المنادين بوحدة الصف لمواجهة الخطر الصليبي ، بل لقد بلغ الأمر ببعضهم أن زار الصليبيين في مدنهم وحصونهم ليبارك جرائمهم ضد أبناء دينه .

وماحدث في ذلك الزمن الغابر تكرر في السنوات الأخيرة .. فهل من مدكر؟

وإذا كان أشد ما تخشاه يهود اليوم - ومن ورائها الدول الاستعمارية - هو قيام وحدة على أساس العقيدة الإسلامية ولذلك تعمل بواسطة روسيا[1] وأمريكا على بث النزاع والخلاف بين الأشقاء فإن الصليبيين في العصور الوسطى قد استماتوا في منع تحقيق وحدة الصف الإسلامي على أساس ديني .

وإذا كانت الشعوب الإسلامية قد رفضت كل خائن يحالف الصليبيين ويتآمر على حياة المسلمين وأرضهم فإن الشعوب الإسلامية لترفض كل متاجر بقضية القدس الإسلامية .

وإذا كانت الجحافل الصليبية قد ارتدت خائبة بعد عدة قرون من الجهود الجبارة التي بذلها المسلمون في الجهاد وفي مقاومة العملاء بعد أن توحد الصف الإسلامي على أساس العقيدة السامية فإن الصهيونية العالمية متمثلة في إسرائيل التي تجثم على صدر العالم الإسلامي وقلبه ستندحر وسترتد خائبة ، كما اندحر أسلافها من قبل وذلك متى وعت الشعوب وتشبثت بدينها ومتى وجد الحكام الذين يتنزهون عن المصالح الشخصية وعن ارتباطات العمالة للشرق والغرب على حدٍ سواء فتتضح معالم الطريق ، ويسعى الجميع في صف واحد لتحقيق هدف واحد .

وصدق الله العظيم حيث يقول : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز »[2] .

« ياأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[3] .

ب- أسبابها :

أما عن أسباب الحروب الصليبية فقد اختلف المؤرخون وماكان لهم ليختلفوا ، فذهب البعض إلى أنها ترجع إلى بواعث دينية ، وذهب آخرون إلى أنها ترجع إلى أسباب سياسية ، وقال البعض أنها ترجع إلى دوافع اقتصادية ، وأرجعها آخرون إلى أسباب اجتماعية ، ويرى البعض أن هذه الحروب ماهي إلا فصل من فصول تلك القصة الطويلة .. قصة الخلاف بين الشرق والغرب مبتدئة بحروب طراودة وفارس في الأزمنة الغابرة ومنتهية بالتوسع الاستعماري الأوروبي في العصر الحديث[4] .

والحقيقة أن التفسير الآحادي للتاريخ يبعدنا عن التحليل الواقعي الموضوعي ولايساعدنا على الاستقراء السليم للوقائع التاريخية .

١- كتب هذا البحث يوم أن كانت لروسيا شوكة ، والحمد لله الذي قوض أركانها .

٢- الآية ٤٠ من سورة الحج .

٣- الآية ٧ من سورة محمد .

٤- الدكتور فيليب في كتابه تاريخ الشعوب العربية .

والذي نميل إليه أن تلك الحروب ما هي إلا حلقة من سلسلة الصراع المستمر بين الحق والباطل . بين الجاهلية والإسلام . قال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »[1] .

وإذا قلنا بأن العامل الديني هو أهم العوامل التي حركت الحروب الصليبية فإن هذا لاينفي وجود عوامل أخرى مختلفة الأهمية صاحبت هذا العامل الأساسي أو نبعت عنه بعد ذلك وأسهمت في تأجيج نار تلك الحروب ..

وسيأتي هذا البحث إن شاء الله موضحا لهذه الحقيقة ، ومبينا أن الدوافع العقيدية كانت هي الدافع الأول والرئيسي للحروب الصليبية ، وأن فشل تلك الحروب إنما حصل عندما ضعف هذا الدافع عند الجحافل المهاجمة ..

١- الآية ١٢٠ من سورة البقرة .





٢- لمحة عن أوروبا العصور الوسطى

لقد حاول البعض أن يحصر العصور الوسطى بين ٤٧٦ ، عندما سقطت الإمبراطورية في الغرب وسنة ١٤٥٣ ، وهي السنة التي سقطت فيها القسطنطينية في أيدي العثمانيين وانتهت فيها حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا(١) .

إلا أن الناظر إلى التاريخ بتعمق يدرك أنه ليس من الحكمة ولا من الواقعية تحديد سنة بعينها لتكون حدا فاصلا بين عصر وعصر ، لأن حلقات التاريخ متداخلة بشكل معقد .

على أنه من الممكن اعتبار القرن الرابع بداية العصر الوسيط لما حدث فيه من تطورات ضخمة على الصعيد السياسي والديني والجغرافي فقد تفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التي كيفت تاريخ أوروبا العصور الوسطى ..

وما قيل في القرن الرابع يمكن أن يقال في القرن الخامس عشر الذي حدث في آخره ما يسمى بحركة النهضة ، حيث تحرر العقل الأوربي من كثير من القيود الكنسية فأبدع في مجالات متعددة .

ولا شك أن إلقاء نظرة موجزة على أوروبا في العصر الوسيط يساعدنا إلى حد بعيد في استقراء دوافع الحروب الصليبية ومعرفة أسبابها ، ويكشف لنا النقاب عن مختلف العوامل والمؤثرات التي تفاعلت فنتجت عنها تلك الحروب .

ا- أحوال الإمبراطورية الرومانية :

كانت أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ هي هذه الامبراطورية التي بلغت من القوة والاتساع مالم يبلغه غيرها في تاريخ البشر، فقد امتدت من المحيط الأطلسي غربا حتى الفرات شرقا . وتمكنت السلطة المركزية من إحكام سيطرتها على هذه المساحات الضخمة وذلك بوضع قوانين تناسب ذلك العدد الكبير من الشعوب . كما تمكنت الإمبراطورية من استيعاب شعوب ذات حضارات قديمة إلى جانب شعوب حديثة المولد . فازدهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية لأهل هذه الإمبراطورية وتركت لهم الحرية الفكرية والاعتقادية ... فشهدت بذلك أزهى عصورها .

لم تكن هذه الإمبراطورية ملكية دستورية ، ولكنها لم تكن كذلك عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة ، حيث ساد العرف والقانون وتمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهوري(٣)

ب- الضعف ومظاهر الا نهيار :

بدأت هذه الإمبراطورية بعد ذلك تضعف شيئا فشيئا وقد بدا ذلك واضحا في القرن الثالث للميلاد عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية في عزل الأباطرة وإقامة غيرهم .. ثم بدأت الفرق الإمبراطورية في مختلف الولايات تتحكم في اختيار قادتها دون الرجوع إلى الإمبراطور إلى غير ذلك من مظاهر التفكك والاضمحلال ، وأصبح النظام استبداديا يعتمد على الجيش في تنفيذ إرادة الإمبراطور والضغط على الأهالي الذين بدأوا يتبرمون من الضرائب وغيرها وظهرت الحروب الأهلية.

١- أوروبا العصور الوسطى . (سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٦ ج١

٢ . ٣- المرجع نفسه ص ١٣ ج ١ .



أما في الخارج فقد زاد ضغط الجرمان كما تضاعف الخطر الفارسي على الولايات الآسيوية .

وفي أواخر القرن الثالث ظهرت بكل وضوح العوامل التي أدت إلى اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ثم سقوطها حيث تفاقمت المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في الداخل ، وازدادت الأخطار الخارجية بشكل بارز وبدأت بعض الولايات تتجه نحو الانفصال عن جسم الإمبراطورية مستجيبة بذلك إلى طموح الأهالي الذين عمهم الاستياء والغضب والنقمة .

وبدأت الحكومة المركزية في محاولات يائسة للإصلاح كالفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية في الولاية وتصغير مساحة الولاية .

وساءت الحالة الإقتصادية نتيجة للحروب الأهلية وفرضت الضرائب الجمركية ، وازدادت نسبتها .. كما أن الضرائب التي تفرض على الأرض قد تحرر منها كبار الملاك وفرضت على المستأجرين ، وبذلك اختل بناء المجتمع الروماني حيث ازداد الغني غنى وازداد الفقير فقرا ، وتناقصت الطبقة الوسطى بشكل سريع وتدهور الإنتاج وانخفضت قيمة العملة التي لم يتردد بعض الأباطرة في تزويرها فارتفعت الأسعار ارتفاعا جنونيا وعمت النقمة وكثرت الثورات ، واتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة .

إذاً .. وضع داخلي متفجر صحبته أخطار خارجية جسيمة وبذلك أصبحت الإمبراطورية على شفا الهاوية ، رغم أن بعض الأباطرة أحسوا بخطورة الوضع فسعوا للإصلاح ..

ج- بارقة أمل ...

وكان من أبرز هؤلاء الأباطرة المصلحين قسطنطين ، نظرا للأعمال الهامة التي قام بها والتي كان لها أثر واضح في تغيير وجه التاريخ الأوربي ، وقد قام بخطوتين على جانب كبير من الأهمية حيث اعترف رسميا بالديانة المسيحية ونقل عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة إلى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور .

ومن أهم التغييرات التي قام بها :

- التفرقة بين السلطتين الحربية والمدنية في الولايات .
- إدخال مبدأ الحكم الوراثي ، وقد اعتمدت أسرته في ذلك على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية من جهة أخرى .
- إنقاص عدد أفراد القوة العسكرية ، والمواصلة في سياسة فتح الباب أمام الجرمان للانخراط في سلك الجيش كجنود نظاميين .
- مضاعفة الضرائب والخدمات الجمركية .
- إنزال طبقة الصناع إلى مرتبة العبودية بجعل الحرف والأعمال وراثية .
- أما في الجانب الديني فإن اعتناقه للمسيحية واعترافه بها رسميا كان له أعظم الأثر فيما وصلت إليه المسيحية من مجد وعظمة بعد ذلك . وكان أن وجدت المسيحية متنفسا كبيرا بعد أن كانت تعاني من الضغوط والقتل والتشريد في صفوف رجالها . ولم تلبث الكنيسة أن حصلت على امتيازات هامة بوصفها راعية الديانة الرسمية للدولة .

وبعد قسطنطين قسمت الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة إلى أن تمكن أحدهم -وهو قسطنطيوس- من توحيدها مرة أخرى سنة ٣٥٠ .



د- إلى الانهيار من جديد :

سرعان ما بدأت الإمبراطورية بعد ذلك تتعرض لعوامل الانحلال السريع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها دون أن تفلح جهود الأباطرة في صد تلك الهجمات أوفي وقف تيار الانحلال ، فبدأت قبائل القوط تتسرب داخل الأراضي الإمبراطورية تحت ضغط الهون الآسيويين .

وفي هذا الوقت أخذت الكنيسة تظهر على درجة كبيرة من القوة والثروة وأصبح مصير الإمبراطورية معلقا بين الجرمان ورجال الكنيسة .

ثم انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين شرقي وغربي بين ابني (ثيودسيوس) وهو مظهر من مظاهر التفكك والانحلال الذي لم تفعل جهود المصلحين من الأباطرة قبل ذلك إلا أن أخرت وقوعه[1] ، ولم يكد القرن الخامس ينتصف حتى كانت الإمبراطورية الرومانية في الغرب قد مُزّقت إربا لضياع معظم أجزائها في أيدي القوى الخارجية من البرابرة وغيرهم .

هـ- سقوط الإمبراطورية في الغرب وقيام الممالك الجرمانية :

توالت الضربات على الإمبراطورية الغربية فسقطت سنة ٤٧٦ ، وأصبح الأمل الوحيد في الكنيسة التي التف حولها الإيطاليون طوال القرون التالية ورأوا فيها الزعيم والسند الكفيلين بحمايتهم[2] . وقد قامت ست ممالك جرمانية في غرب أوروبا على أنقاض الأمبراطورية الرومانية .

وهذه الممالك هي : مملكة أودواكي في إيطاليا -الوندال في شمال إفريقية- القوط الغربيون من اللوار حتى مضيق جبل طارق -البرجنديون في وادي الرون ووادي الساؤون -دولة الفرنجة على المز والراين الأدنى- وصغرى هذه الممالك الجرمانية وهي مملكة السويفي في الجهات المعروفة حاليا بأمم البرتغال وغاليسيا .

ومن أهم هذه الممالك الست دولة الفرنجة التي يعتبر قيامها أهم حدث في تاريخ الغزوات الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصف بطابع الغزو .[3]

وقد احتفظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية بينما ذابت بقية الشعوب الجرمانية في المحيط اللاتيني الذي استقرت فيه .

وقد اعتنق الفرنجة المسيحية ، والمهم في هذا هو أنهم اعتنقوها على مذهبها الإثناسيوسي أو الغربي مخالفين في ذلك بقية الشعوب الجرمانية التي ظلت ممقوتة في الغرب بسبب أريوسيتها ، فاكتسب الفرنجة بذلك عطف الكاثوليك وتأييدهم في جميع أرجاء غرب أوروبا ، وقام بذلك نوع من التعاون والارتباط والتآلف بين الفرنجة والنرمان وظهر ملوك الفرنجة في ثوب حماة المسيحية ورجالها في الغرب مما مهد لإيجاد نوع من التحالف بين البابوية وملوك الفرنجة مما كان له أبعد الأثر في مستقبل أوروبا العصور الوسطى .

وقد توسع الفرنجة في الاتجاهين الشرقي والشمالي إضافة إلى توسعهم في الجهات الغربية والجنوبية ، وذلك عندما أخذ الأهالي من الرومان الكاثوليك في بقية أنحاء "غاليا" يتمنون الدخول

١- أوروبا العصور الوسطى . سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٣١ ج١ .



٢- المرجع نفسه ص ٨٠ ج ١ .

٣- المرجع نفسه ص ٩٦ ج١ .



تحت حكم الفرنجة الذين يتفقون معهم في المذهب ، وقد ظهر هذا التوسع بوضوح خاصة عندماأنزل الفرنجة بالألمان هزيمة ساحقة حتى اضطروا إلى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين .على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكي لم يلبث أن أثار روح البغضاء والكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين في غاليا مثل البرجنديين والقوط الغربيين وغيرهم .

و- صراعات بين الغزاة :

أما البرجنديون فقد استطاع كلوفس ملك الفرنجة إجبارهم على دفع الجزية -رمز التبعية- وأما القوط الغربيون فقد قتل ملكهم واستولى على جزء من مملكته ، إلى أن تدخل ملك القوط الشرقيين وحل الموقف وتم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين في حين احتفظ ملك القوط الشرقيين بالجزء الآخر .

وقد اعتبر الفرنجة أن الملك إرث يقسم بين سائر أبناء الملك كسائر أنواع الإرث .. ولذلك فقد قسم كلوفس المملكة بين أبنائه الأربعة وكان لهذا الأمر أثره في مستقبل دولة الفرنجة . وقد تواصلت مقومات هذه الدولة -رغم ذلك التقسيم- وخاصة وأن كلوبترا استطاع توحيد مملكة الفرنجة من جديد بعد وفاة إخوته الثلاثة . إلا أن هذه المملكة العريضة لم تلبث أن انقسمت مرة أخرى لتظهر فيها بكل وضوح الخلافات التاريخية والجنسية بين مختلف الأقسام .

ثم غزا القوط الشرقيون إيطاليا في شكل هجرة عامة اسطحبوا فيها نساءهم وماشيتهم وكان زعيمهم ثيودريك يعتبر أعظم شخصية سياسية في عصره وقد دخل إيطاليا صديقا لاعدواً ، وتمتعت في عهده بحكم قوي حازم ، وبالرغم من ذلك فقد ظل الخلاف المذهبي يحول دون حسن التفاهم بين الاثناسيوسيين والأريوسيين ، ولم يتمكن ثيودريك رغم كل الجهود التي بذلها من إقامة مملكة قوطية آمنة ثابتة الأركان في إيطاليا ، ولم تتضح له هذه الحقيقة المؤلمة إلا في أواخر أيامه عندما قام إمبراطور الدولة البيزنطية باضطهاد كبير للأريوسيين . ولما لم يُجد تدخل ثيودريك قام بحملة أكبر شناعة ضد الكاثوليك في إيطاليا . وعندما مات ثودريك اختفى القوط الشرقيون من صفحة التاريخ كأمة قائمة بذاتها .

أما بريطانيا فقد انسحبت منها الفرق الرومانية في أوائل القرن الخامس ثم تلاحقت عليها الأحداث إلى أن توارت تماما من مسرح التاريخ ، حتى إذا ماظهرت من جديد كانت قد اتخذت صيغة جديدة وأصبحت انجلترا لابريطانيا ، ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطئ بحر الشمال وفي شبه جزيرة جتلاند (مثل الانجليز والسكسون والجوت) واصلت غاراتها على بريطانيا وخاصة بعد انسحاب الجيوش الرومانية في أواخر النصف الأول من القرن الخامس فاصطحبوا معهم نساءهم قصد الإقامة ، فطردوا أهل البلاد الأصليين مما جعل المسيحية تختفي مؤقتا من البلاد .

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم وإنما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت باسم الممالك السبع واستمرت المنازعات بين هذه الممالك حتى استطاع اثلبرت -وهو أحد الملوك السبع- أن يفرض سيطرته عليها جميعا . وكان هذا الملك قد تزوج من أميرة فرنجية مسيحية في الوقت الذي وصل انجلترا القديس أوغسطين الصغير مبعوثا من البابا جريجوري ، وكان لهاذين العاملين أثر كبير في انتشار المسيحية بخطى حثيثة من جديد في هذه البلاد حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشرالمدنية والوحدة القومية بين ربوعها .

وهكذا يتضح أن الغزوات التي قام بها البرابرة قد تركت أثرا واضحا في المجتمع الروماني وأدت إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية في الغرب ولم تفلح جهود الإمبراطور البيزنطي في استرداد الأقاليم المفقودة ..

أما من الناحية الاقتصادية فإن الامبراطورية الرومانية كانت تشكو أعراض التدهور الإقتصادي قبل أن تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها ، ذلك الغزو الذي زاد الطين بلة لما صحبه من حروب نتج عنها التدمير والخراب وتوقفت التجارة والصناعة والزراعة .

ولعل الناحية التي ظلت ثابتة في التطورات الجديدة هي الكنيسة الكاثوليكية التي احترمها الجرمان ولم يمسوها بسوء ، حتى ازدادت في ذلك العصر قوة ونفوذا . والواقع أن الأخطار التي ألقت بالعالم الروماني من جهة وسقوط الإمبراطورية الغربية من جهة أخرى جعلا الكنيسة الغربية تبدو في صورة القوة الوحيدة التي يمكنها إنقاذ مايمكن إنقاذه من تراث الماضي . كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين التف حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التي أحاطت بهم .





٣- الإمبراطورية البيزنطية

لم يقدر البقاء للقسم الغربي للإمبراطورية الرومانية فسقط قبل مضي قرن من الزمان على ذلك التقسيم ، ولكن القسم الشرقي أو البيزنطي قد ظل وثبت ، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا القسم الأخير لم يتعرض للأخطار التي تعرض لها القسم الأول .

وكانت هذه الإمبراطورية شرقية الطابع ، والكنيسة يونانية اللغة والحضارة والتراث بعكس الأولى التي كانت غربية الطابع ، لاتينية اللغة والحضارة ، كاثوليكية المذهب . وقد شهدت هذه الإمبراطورية تقدما ملموسا في مختلف المجالات ، وخاصة بعد وفاة الإمبراطور ثيودسيوس الثاني .

أ) الأوضاع الداخلية والخارجية في عهد جستينيان :

كان من أبرز الشخصيات التي تولت عرش الإمبراطورية هو جستينيان (٥٦٥-٥٢٧) وزوجته ثودورا التي لعبت دورا هاما في حياة زوجها السياسية .

وتبدو أهمية جستينيان في إخراج الإمبراطورية من الأخطار الكبيرة المحدقة بها حيث نزع الجرمان معظم ولاياتها في الغرب ، في حين أخذ خطر الفرس يتفاقم في الشرق مرة أخرى فتوخى جستينيان في المجال الحربي سياسة الدفاع في الشرق والهجوم في الغرب ، وبذلك يكون قد حافظ على العلاقة بين الدولة البيزنطية من جهة والعالم الروماني الغربي من جهة أخرى ، كما أنه حال دون جعل هذه الامبراطورية قوة شرقية بحتة .

وكان قد استعاد إفريقية من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين ، وبدأ يوجه جهوده نحو استرداد إسبانيا من القوط الغربيين ، إلا أن الكوارث التي لحقت بالإمبراطورية في الشرق من قبل الفرس حالت دون إتمام مشروع جستنيان في جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية . كما كان عليه في هذه الأثناء أن يحمي حدود إمبراطوريته في شبه جزيرة البلقان من أخطار جماعة جديدة من البرابرة .

وكانت أعماله السلمية في غاية الأهمية ومن أبرزها إصدار مجموعة الدساتير الإمبراطورية التي نسبت إليه ، أما سياسته الدينية فكانت ترمي إلى السيطرة على شؤون الدولة الكنسية جميعا بحيث يصبح جستنيان بمثابة امبراطور وبابا في الوقت نفسه ، ويبدو أنه كان يصبو إلى توحيد رعايا العالم الروماني في ظل كنيسة واحدة يسيطر عليها هو ، ولما كان تحقيق هذه الغاية يتطلب القضاء على الوثنيين والهراطقة قضاء تاما فإنه تمسك بالمراسيم التي أصدرها أسلافه في هذا الشأن ، وأقصي عن مهنة التدريس كل من فيه شبهة التدين بتعاليم الهللينية وفلسفتها .

على أن جستينيان -لأسباب عدة- لم يستطع أن ينهج سياسة ثابتة فيما يخص مشكلة "المونوفيزيتية" وهي المشكلة التي هددت باتساع فجوة الانشقاق الديني بين روما والقسطنطينية وأخيرا شجعه دخوله إلى روما على اتخاذ رأي حاسم في الموضوع هو مساندة "المونوفيزيتية" وكانت النتيجة أن ازدادت هوة الخلاف داخل المذهب عكس ماكان يتوقعه جستنيان . وظل العداء سائدا بين روما والقسطنطينية بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح حتى استولى المسلمون على المراكز الرئيسية للمذهب "المونوفيزيتي" .



ونظرا لكثرة الحروب في عهد جستينيان فإن شعوبه قد عانوا الكثير من البؤس ويمكن القول بأنه ترك الإمبراطورية أشد إجهادا مما وجدها عليه . فظهرت عليها عوارض الانهيار الشديد بعد وفاته مباشرة .

ب- عوارض الانهيار بعد جستنيان :

مباشرة بعد وفاة جستنيان برزت ملامح الاضمحلال الشديد على الإمبراطورية البيزنطية حيث دخل اللمبارديون إيطاليا ، والقوط الغربيون إسبانيا ... وتجددت الغارات عليها وتوغل الأفار والسلاف داخل تراقيا ومقدونيا ، وقد جابههم الإمبراطور موريس وأحرز انتصارا باهرا ، إلا أن أمره للجيش بقضاء فصل الشتاء على الحدود الشمالية أدى إلى ثورة الجند فزحفوا على العاصمة ، وقتلوا موريس وأعلن فوقاس -زعيم الإنقلاب- نفسه إمبراطوراً .

وكان هذا الانقلاب نكالا على الإمبراطورية حيث لم يحصل فوقاس على رضى الرأي العام .

واخترق الروس آسيا الصغرى في الوقت الذي اشتد فيه ضغط الافار على الجبهة البلقانية .

وكان فوقاس أضعف من أن يواجه الموقف بصلابة ، فواصل الأفار زحفهم حتى بدت الامبراطورية على شفا هاوية سحيقة . وحينئذ انهار فوقاس وبدأ يتشكك في كل من حوله . وشن موجة من الإرهاب حتى على المقربين عنده فعمت النقمة داخل الجيش ، حيث تخلى عنه خيرة القادة وتم الإنقلاب ضد فوقاس (سنة ٦١٠) دون حرب بمعونة هرقل حاكم قرطاجة .

في هذا الظرف العصيب تولى هرقل حكم الإمبراطورية ليجد الخزانة خاوية والولايات منهكة ، والفوضى داخل البلاد والأخطار المحدقة خارجها ..

وفي سنوات قليلة فقدت الإمبراطورية جميع أراضيها الآسيوية التي اجتاحها الفرس.. وفي الجبهة الغربية تقدم الأفار حتى وصلوا بلاد اليونان نفسها فلم يبق للأمبراطورية سوى القسطنطينية وجزر ايجة وجنوب إيطاليا . وولاية شمال إفريقية حول قرطاجة وجزء محدود من آسيا الصغرى .

ورغم صعوبة الموقف فإن هرقل لم يستسلم خاصة عندما أبدت الكنيسة تعاطفا معه وساعدته بالمال اللازم ، وبعد وقت نظم فيه نفسه ورصد فيه تحركات أعداءه بدأ حربه ضد الفرس بعد أن أمن جانب الأفار ، مقابل مبلغ ضخم من المال . ويبدو أن حرب هرقل مع الفرس قد أخذت طابعا دينيا صليبيا بحتا إذ شارك فيها كثير من المسيحيين من أجل استرداد الصليب الأعظم الذي استولى عليه الفرس عند غزوهم بيت المقدس .

وكان أن أنزل هرقل هزيمة فادحة بالفرس ، وتعقبهم إلى المدائن عاصمة الفرس حيث صالحوه على استرداد جميع الأراضي التي أخذوها وعلى أن تعود الحدود بين الدولتين كما كانت في عهد موريس.

وبعد ذلك تكاثرت الثورات والفتن الداخلية في دولة الفرس مما مزق أوصالها ، وفي ذلك الوقت تعرضت بلاد فارس لخطر جديد غير الروم هم العرب المسلمون وأصبحت فارس جزءا من الدولة الإسلامية .

وساد الإمبراطورية البيزنطية الاضطراب منذ وفاة هرقل حتى نهاية حكم أسرته سنة (٧١٧) ، وفي هذه المدة بذلت الإمبراطورية جهودا يائسة لوقف الخطر الجديد ، ولكن هذه المحاولات لم تنجح



في وقف حركة الفتح الإسلامي حيث استولى المسلمون على الشام ومصر ثم على قبرص ورودس ، بل هاجموا القسطنطينية نفسها في حين انتهوا من غزو شمال إفريقية بأكمله . ولاشك أن الكنيسة لن تنظر بعين الرضا إلى هؤلاء الذين سلبوها أعز مراكز النصرانية كما أن المسلمين قد دخلوا اسبانيا وهنا بدت خسارة الكنيسة واضحة جلية .

وكذلك فقد نشبت اضطرابات كبيرة في أطراف البلقان وتوغل البلغار في أراضي الدولة البيزنطية في البلقان .

ج- الإمبراطورية تقف على قدميها من جديد وظهور المشكلة الايقونية :

وفي وسط هذه الأخطار العظيمة في الداخل والخارج وجدت الإمبراطورية البيزنطية في شخص ليو الثالث حاكما قويا ، وقد تمكن من صد الجيش الإسلامي عن القسطنطينية بعد أن حاصرها المسلمون لسنة كاملة ، ورجعوا دون تحقيق غرضهم ، ويعتبر هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتاريخ أوروبا إذ لو استولى المسلمون على القسطنطينية لتغير وجه شرق أوروبا بأكمله ، لأنه كان معمورا بالوثنيين الذين كان دخولهم في الإسلام محتملا إلى حد كبير.

وبعد ذلك نظم ليو الثالث جيشه وبدأ في حماية الإمبراطورية وصد الهجمات الموجهة إليها ومن ذلك أنه ألحق هزيمة برية بالجيوش الإسلامية التي حاولت غزو آسيا الصغرى . وقد ساعده على ذلك المعونة التي تلقاها من مملكة الخزر التي ارتبطت بالبيزنطيين لمواجهة الخطر المشترك من جانب المسلمين .

وفي الجانب المدني كذلك كانت للإمبراطور ليو الثالث إصلاحات في غاية الأهمية خاصة وأنه وجد الإمبراطورية في غاية الإنهاك .

في ذلك العصر ظهرت مشكلة دينية استمر أثرها عدة قرون في تاريخ غرب أوروبا فضلا عن شرقها ، ألا وهي عبادة الصور والأيقونات ، إذ ظهر رأي ينادي بتحريمها بعد أن انتشرت وشاعت ، والحقيقة أن المشكلة كانت وليدة القرون الأربعة السابقة .

ورأى ليو الثالث تحريم عبادة الصور لأسباب اقتصادية وسياسية وكانت نتيجة هذا الأمر هو انقسام الناس داخل الكنيسة وخارجها إلى معسكرين : أيقونيين ولا أيقونيين .

ومن الجدير بالذكر أن نقول أن الحرب على الأيقونية بدأت في الدولة الإسلامية ثم انتقلت بعد ذلك إلى الدولة البيزنطية ، وقد كانت الفكرة مقبولة في شرق الإمبراطورية أكثر من غربها بتأثير العقيدة الإسلامية التي حرمت عبادة الأصنام .

وقد وافق ليو الثالث كثير من كبار موظفي الدولة من مدنيين وعسكريين والمثقفين من رجال الدين . أما معارضيه فكانوا خاصة إيطاليا والبابوية وبعض المستفيدين من عبادة الايقونات وعلى رأسهم الديريون .

وكان أمر الامبراطور حازما في تحريم عبادة الأيقونات ، وبدأ رجاله فعلا في التنفيذ فأزالوا الصليب الكبير المقام فوق بوابة القصر الإمبراطوري في القسطنطينية مما أثار عامة الناس ، فكان أن أخضع الامبراطور ثورتهم بالقوّة .



ولم تلبث هذه الأعمال أن استفزت رجال الكنيسة لاسيما في الغرب فوقف البابوات موقفا عنيدا من سياسة الإمبراطور اللاأيقونية ، واستمر الخلاف عدة قرون حتى انتهى بفوز الأيقونية وأنصارها . وكان لهذا النزاع خطره بالنسبة لإيطاليا والبابوية وعلاقتهما بالدولة البيزنطية حيث ازدادت حدة الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية مما كان له أثر واضح في مستقبل الحوادث التاريخية إذ غدت إيطاليا مقسمة إلى ثلاثة أقسام ، فالوسط لاتيني يظهر فيه نفوذ البابا ، والجنوب يوناني يتبع الإمبراطور البيزنطي ، والشمال جرماني يخضع للمبارديين . وقد تحالفت البابوية مع الفرنجة لصد هجمات اللامبارديين بعد أن فقدت الدعم البيزنطي .

د- إلى الضعف من جديد ..

وبعد ليو الثالث جاء قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥) فواجهه الأيقونيون بإشعال ثورة في البلقان منادين بسقوطه ، ولكنه تمكن من إخماد هذه الثورة . واتخذ من قرار مجمع القسطنطينية الذي أقامه سلاحا قويا ضد أنصار الأيقونية .

وقد اتصف عهده بنشاط حربي أحرز فيه انتصارات على أعدائه في الشرق والغرب وصد هجوم المسلمين على جزيرة قبرص ، كما صد هجوم البلغار وأدبهم وأوغل داخل أراضيهم .

وبعد ذلك تولت إيرين زوجة ليو الرابع الوصاية على ابنها ، وأظهرت نزعتها اللاأيقونية إلا أنها عجزت عن صد هجمات المسلمين في آسيا الصغرى ، حتى وصلوا إلى البسفور ، فاشترت إيرين معهم الصلح مقابل مبلغ ضخم من المال تدفعه سنويا ، كما أن البلغار أنزلوا هزيمة عنيفة بجيوش الامبراطورية .

وفي هذه الظروف بلغ ابنها قسطنطين السادس سن الرشد ، ولكن لذة الحكم جعلتها تحقد عليه خاصة عندما انتصر على العرب في أنطاكيا -على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى فسملت عينيه ونفته في أحد الأديرة .

وبعد ذلك ازدادت الكوارث على الدولة البيزنطية من الداخل والخارج .. في الداخل أثار سلوك إيرين الفظ روح المعارضة والحنق عند فريقين من أهم عناصر الدولة وهم الجيش وملاك الأرض ، أما في الخارج فقد عادت جيوش هارون الرشيد إلى تهديد الأقاليم الآسيوية فجددت إيرين العهد بدفع جزية سنوية للمسلمين .

وفي هذه الظروف القاسية دخلت إيرين في مفاوضات مع شارلمان امبراطور الغرب الجديد -بطل المسيحية الأول كما يسميه أهل غرب أوروبا- بقصد الزواج منه وتوحيد الشرق والغرب .

ولما طفح الكيل دبّر كبار رجال الدولة بزعامة نقفور أمين الخزانة مؤامرة سنة (٨٠٢) ضد إيرين ونجحوا في القبض عليها وحبسها في أحد الأديرة وبهذا انتهت صفحة الآسيويين من حياة الإمبراطورية .

وقد عقب ذلك فترة انتقال استمرت حتى عام ٨٢٠ عندما قامت الأسرة الفرنجية ، ومن أهم ماوقع هذه الفترة ..

- الاهتمام بإدارة المالية والجيش .





- دفع الجزية للمسلمين بعد عدم التوفيق في محاربتهم .
- ازدياد خطر البلغار وقد نجح نقفور في صدهم في البداية ولكن مسعاه انتهى بالفشل .
- الاعتراف بشارلمان امبراطورا شرعيا مساويا في المرتبة بالإمبراطور البيزنطي .
- اضطهاد الأيقونيين .
- هزيمة البلغار عند سبيريا .

وفي عهد الأسرة العمورية (٨٢٠-٨٦٧) نجح المسلمون في الأندلس في اجتياح كريت وتأسيس مدينة الخندق وباءت الجهود التي بذلتها الإمبراطورية لاستردادها بالفشل ، وكان في ذلك ضربة كبرى للتجارة البيزنطية ، وبخاصة أن المسلمين قد غزوا صقلية سنة ٨٢٧ مما مكنهم من السيطرة على طريق الملاحة في البحر المتوسط .

وبعد ذلك ظلت الحرب بين البيزنطيين والمسلمين حوالي ٣٠سنة دون أن يستطيع طرف إنزال ضربة قاصمة بالآخر ، وإنما اتخذت الحرب شكل غارات مفاجئة تخللتها هدنات قصيرة ..

وقد غزا المسلمون الجهات المجاورة للدولة البيزنطية حتى وصلوا إلى هرقلة سنة ٨٣١ في الوقت الذي أغارت فيه الأساطيل العباسية على الجزر الواقعة قرب الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى ثم احتل المسلمون عمورية في عهد المعتصم ، وعقد صلح بين الطرفين .

وبعد ذلك قام الروس بأول هجوم لهم على القسطنطينية سنة ٨٦٠ في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور البيزنطي في طريقه لحرب المسلمين فرجع مسرعا لإنقاذ عاصمته .

ولعل أهم مايميز ذلك العصر هو جهود الكنيسة الشرقية في نشر المسيحية بين الشعوب المجاورة كالروس والبلغار والسلاف .

وكان ميخائيل الثالث قد أشرك معه في الحكم أحد رفاقه وهو باسل المقدوني الذي لم يلبث أن تخلص من الإمبراطور بقتله سنة ٨٦٧.

هـ- الأسرة المقدونية، روح جديدة تسري في الإمبراطورية البيزنطية :

شهدت الدولة في هذا العهد شيئا من الأمن والاستقرار الداخلي حيث كان أباطرتهم وخاصة مؤسس الأسرة باسل الأول على درجة جيدة من المقدرة والكفاية والحنكة السياسية .

أما في الخارج فأن ظروف أعداء الأمبراطورية كانت مناسبة جدا لكي تتوسع على حسابهم ، فقد كانت الدولة الإسلامية تعاني من عوامل التفكك والانهيار فاستردت الأسرة المقدونية جزيرة كريت واستولوا على بعض المعاقل المهمة في قليقيه إلى أن أتموا غزوها . واستولوا على إمارة حلب وأنطاكية وتعهدت دمشق بدفع الجزية . أما صقلية فلم يتمكنوا من استردادها من المسلمين .

كما أنهم ألحقوا هزيمة مرة بالروس سنة ٩٧٢ وأخضعوا البلغار بعد أن أوغلوا في بلادهم بحجة الدفاع عنهم ضد الروس حيث احتلوا كل بلغاريا الشرقية ثم أكملوا غزو بلاد البلغار كلها ، وأحس المسيحيون في عهد باسل الثاني بضرورة توجيه جهودهم ضد خصومهم في العقيدة فأخذ يستعد لإرسال حملة جديدة ضد مسلمي صقلية عندما فاجأه الموت سنة ١٠٢٥ .

وكانت وفاته نقطة تحول خطير في تاريخ الإمبراطورية لما أعقب وفاته من انحلال ظاهر في



الداخل والخارج حيث شهد ذلك العهد غزو النورمان لابوليا وكالبريا والقضاء على ماتبقى من النفوذ البيزنطي في إيطاليا .

وإلى جانب هذا فقد ازدادت نقمة الأهالي بسبب قسوة الضرائب وإتمام القطيعة نهائيا بين الكنيستين الشرقية والغربية في الوقت الذي أخذ الأتراك السلاجقة ينفخون روحًا جديدة في الدولة الإسلامية .

وفي سنة ١٠٥٧ انتهت فترة حكم هذه الأسرة لتبدأ الإمبراطورية متاعب جديدة مع السلاجقة المسلمين الذين أنزلوا بهذه الإمبراطورية خسائر فادحة حيث توسعوا في آسيا الصغرى دون مقاومة بل إن البيزنطيين استعانوا بهم في خلافاتهم الداخلية .

وفي تلك الأثناء بذلت محاولات كبيرة للتوفيق بين الكنيستين وتوحيد المسيحيين للقضاء على هذا العدو الكبير الذي يهددهم وهو الإسلام .. خاصة وأن الأوضاع الداخلية للمسلمين كانت مشجعة إلى حد بعيد .

ولم يجد الإمبراطور الكسيوس وسيلة يستعين بها لدفع خطر السلاجقة سوى الاستنجاد بالبابوية عدة مرات ، حتى انتهى به الأمر إلى إرسال بعثة البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ لشرح خطر السلاجقة على المسيحية بوجه عام .





٤- خطوط وظواهر بارزة في العصر الوسيط في أوروبا

بين الغارات البربرية الكبرى في القرن الخامس وبين فجر النهضة الأوروبية الحديثة في القرن الخامس عشر مضت ألف سنة من عمر الزمان ، أطلق عليها المؤرخون اسم (القرون الوسطى) .

إن العصر الوسيط لم يعرف الفصل في أدوار التاريخ إلا تحت زاوية الدين .. ولذا فإن الحد الفاصل بين العصر القديم والعصر الحديث هو ظهور المسيحية أو ظفرها في عهد قسطنطين . ولانجد في العصر الوسيط نصا يدخل غير هذه الحقيقة[1] وذلك لأن العصر القديم بدأ مرتبطا ارتباطا وثيقا بالوثنية .

وإذا تأملنا هذه الحقبة من الزمان وجدنا عصرا تعاقبت فيه السيطرة والنفوذ بين الأمم ، وكان كل منها تحاول أن تلتهم الأخرى إلى أن شيدت روما أوسع إمبراطورية عرفها التاريخ .. وحققت أحلام الفاتحين من عمسيس إلى الاسكندر ممن حاولوا الوصول إلى ذروة المجد والقوة .

ومن عهد أغسطوس إلى قسطنطين نمت الثقافة الإغريقية -اللاتينية- حول البحر المتوسط وضربت روما بالرقم القياسي العالمي وغدت وحدة رومانيا دستور البشرية الراشدة المتفوقة التي بلغت مثلها الأعلى في ذلك العصر . ورافق هذه الوحدة نوع من الإستمرار ، وغدت روما (المدينة الخالدة) وكل من كان خارجا عنها بربريا ، وهكذا ألهت الإمبراطورية الرومانية عندما أصبحت تدل على الحضارة . وما ظفرت المسيحية حتى أضافت ماعندها إلى هذا الشعور بتفوق روما وغدت (روما بطرس) أعظم من روما أغسطوس وعاصمة عامة عالمية ، وأصبحت الإمبراطورية باعتناقها المسيحية مقدسة أكثر من ذي قبل . ولذلك بدت الغارات البربرية كارثة عظمى في نظر رجال القرن الخامس .

إن انحطاط الإمبراطورية في آخر أيامها والأزمة التي انتابتها ودخول البرابرة إليها واستقرارهم فيها أدت جميعا إلى زعزعة الوضع السياسي والاجتماعي بكامله ، ومنذ ذلك الحين بدأ وضع جديد في حال التحضير والتهيئة .

إن السلام الطويل الذي عاشته الامبراطورية بعد الفتح قد أضعف فيها الشعور العسكري الذي تملك الغرب اللاتيني آنذاك ، لأن الغرب كان مستهلكا أكثر مما ينتج ، حيث كان يقيم في روما أثرياء لاعمل لهم إلا الاهتمام برفاههم وبذخهم على حساب الاقتصاد العام . وعاطلون رسميون يعيشون على حساب الجماعة .. ولذا كانت روما تستوعب بلامقابل ، وكان الشرق يجهزها بكل ماتريد فأخذت الثورة طريقها إلى الشرق مما أدى إلى العجز وتوالى سقوط النقد وبذلك سيطرت الثروة العقارية والحياة القروية المحلية فتبدلت طباع الغرب واختل نظامه .

وبعد ذلك أصبح كل ملك من ملوك البرابرة مستقلا ، وغدت على الفور ولايات روما ممالك ناشئة مثل فرنسا الميروفنجية وأسبانيا الفيزيغوطية وإيطاليا الاستروغوطية وحلت الكثرة محل الوحدة وقام مقام الإمبراطورية دول متعددة .

١- تاريخ العصور الوسطى في أوروبا ، د. نور الدين حاطوم ص ١٤ ج١ .



وهذه الإمبراطورية التي تلاشت في الواقع بقيت سالمة في عالم الفكرة المحضة ، مما أدى إلى إرجاعها للواقع عندما توج شارلمان إمبراطورا في روما مفتتح سنة ٨٠٠ للميلاد .

ولكن القرن التاسع الذي بدأ فيه فجر الوحدة انتهى في ظلام التجزئة والانقسام وذلك لأنه لم يكن لشارلمان وارث أهل لهذا الإرث .. فانهار أثره بعده .

ولاشك أن مثل هذه الأسباب عارضة ، غير أن دراسة حكم لويس تدل على أن تطاحن الأحزاب وتصادم المنافع الفردية أضر بالوحدة ضررا بالغا .

وقد كان الاقتصاد والسياسة يتطوران بصعوبة وباتجاه متعاكس . فمن الوجهة السياسية كانت الدولة الكارولنجية دولة مركزية موحدة . وقد استطاعت أن تعيد للغرب شكل الإمبراطورية غير أنها كانت تعيش على اقتصاد موضعي ، وذلك لأن الحروب والفتوح والدبلوماسية ومفاهيم المثقفين لم تغير شيئا في شروط الحياة اليومية إذ لم يطرأ مايبدل توزيع الثروة واتجاه سير النفوذ .

ولقد قيل بحق إن الإمبراطورية الكارولنجية كانت دولة سياسية عظمى إلا أنها لم تكن دولة اقتصادية عظمى ولهذا السبب تكيف الغرب مع الاقتصاد المغلق وزاد في ذلك الفتح الإسلامي بما أحدثه من انقطاع وبتر في علاقات البحر المتوسط ، يضاف إلى ذلك أن الحياة الكارولنجية كانت موضعية أكثر من الحياة الميروفنجية حتى أننا لانجد فيها مدنا بل حقولا تكتفي بنفسها في حالة اكتفائية قروية[١] وعن هذه الحياة الموضعية والتطور الإجتماعي نشأ النظام الإقطاعي .

إن هذا الاقتصاد المجزأ والمبعثر لايمكن أن يتفق مع المفهوم السياسي للوحدة إلا بتغلب إحدى هاتين النزعتين المتضادتين على الأخرى ، فإما أن يفتح الاقتصاد أبوابه وينهار بناء الوحدة ، ولما لم يكن باستطاعة أحد أن يفتح الإقتصاد المغلق فقد تحققت الفرضية الثانية بانقسام الأمراء وتجزئة الوحدة الإمبراطورية الغربية .

وبقيت فكرة الوحدة الإمبراطورية في الأذهان وظل العصر الوسيط المجزأ يتعطش إلى الوحدة التي بحث عنها طويلا في تجديد الإمبراطورية وفي الفكرة اللاتينية المسيحية أي إنه أراد أن يحققها مدنيا أو دينيا .

ولعل حنين العصر الوسيط إلى الوحدة يوضح لناإلى أي درجة كانت تستهويه (خصومة التقليد العلماني والكنسي) وبأن هياج واهتمام كان يتبع النزاع بين الكهنوت والإمبراطورية الذي امتد أكثر من قرنين من الزمان شغل فيها القلوب والعقول ..

وبينما كانت القوتان المتنافستان تغالب إحداهما الأخرى في سبيل نصر مستحيل كانت الحوادث تشير بعكس ما تريده الكنيسة . وذلك لأن عالما جديدا أخذ يرتسم ويتضح منذ القرن الثالث عشر ، ولأن الاقتصاد بدّل اتجاهه منذ بداية القرن الحادي عشر ، فقد نشط البحر المتوسط علاقاته مع الشرق بسبب حج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة وبسبب الحروب الصليبية وبسبب تشكل طبقة البورجوازية ، هذه الطبقة الجديدة التي اهتمت بالصناعة والتجارة .

وبكلمة مختصرة إن ظروفا مختلفة تجمعت وساعدت على زوال الإكتفائية ، وتركت المكان

١- تاريخ العصور الوسطى في أوروبا ، د. نور الدين حاطوم ص ١٦ ج١ .



شاعرا إلى الإقتصاد الحديث الذي ينزع إلى الراسمالية والمبادلة الدولية ، وفي الوقت ذاته آخذت النزعة السياسية التي بلغت درجتها الإقطاعية القصوى في القرنين التاسع والعاشر تخضع لاتجاهات جديدة وقوة استقطاب شديدة ، غلبت فيها النزعة المركزية من جديد على النزعة الأميرية الإقطاعية ، وكان هذا التطور الجديد مسوقا بدافع الملوك ، ولذا اتجه نحو وحدات لانحو وحدة ، أي إلى تأسيس دول إلى جانب بعضها ولاشك أن هذه النتيجة كانت سببا لكثير من الغارات .

وكان وراء هؤلاء الملوك شعوب قد اكتسب كل منها شعورا بكيانه ، وبدأت في بلاد الغرب حركة قومية تجلت للعيان في القرن الرابع عشر عندما دخلت فرنسا ضد انجلترا في حرب المائة عام، وتحملت كل واحدة منهما فظائعها وآلامها ، وكانت هذه الحروب فرصة نمت فيها إرادة كل من الدولتين واهتزت فرديتها الخاصة ، وبعد أن بلغت كل منهما سن الرشد ، ظهرت في الأفق السياسي إسبانيا الفتية التي شعرت بشخصيتها في حربها مع المسلمين ، والعمل على استرداد بلادها من أيديهم ، وكذا إيطاليا فهي وإن فقدت قوة التماسك والارتباط بين أجزائها إلا أنها كانت شعلة وضاءة تزهو ثقافتها أمام (البرابرة)، أما ألمانيا فقد بدأت بفضل الأسرة النمسوية تبشر بالدور الذي ستلعبه في المستقبل[1] .

وهكذا نشأت أوروبا وتألفت دولها ، وأخذت كل واحدة منها في تحديد قوى الأخرى والتألب عليها ، ولم يكن ثمة مجال للتوحيد بين هذه الدول ودمجها في دولة واحدة ، أو إمكان لسياسة توسيعية ظاهرة.

ولما سئم العالم الغربي من البحث عن السلام في وحدة لايمكن تحقيقها -وربما كانت غير مرغوب فيها- لم يجد بدا من أن يراها في توازن القوى الذي انبثق عنه احترام الحريات والحقوق وما ينشأ عن ذلك من انسجام .

وهكذا يتضح أن ألف عام العصر الوسيط قد سهلت المرور من عالم الوحدة القديمة إلى عالم الكثرة الحديثة ، فهو إذا عصر انتقل بالغرب من مرحلة إلى مرحلة ..

هذا ويقسم تاريخ العصر الوسيط إلى دورين كبيرين : الأول ، ويمتد إلى منتصف القرن العاشر وهو دور اتصال بين الشعوب مبهم في أوله ، ولكنه أخذ ينتظم بالتدريج وبدأت تظهر فيه معالم بناء المستقبل ، فقد قامت فيه أطر جديدة ومواد حضارية أنقذت الناس من غرق العصر القديم ، واستطاعت الكنيسة بالتدريج أن تكسب الأفراد والحياة الاجتماعية . وفي هذه الأطر وهذه الروح ، ومن هذه المواد ، أعد الكارولنجيون التركيب الأولي ، وهو تركيب غير عقيم في الجملة ولكنه أتى مبكرا وقبل الأوان وسيؤتي ثماره في الأجل البعيد وذلك عندما وقعت الكنيسة في أيدي العلمانيين وتناست أصولها وجذورها الأولى ثم أصلحت نفسها وتحررت ، وعندما انطلقت الحركة الديموغرافية لتعمل وتنهض من خبالها . ويجد العصر الوسيط توازنه في الفترة الواقعة في الربع الثاني من القرن الثاني عشر ويؤلف دورا عامرا من أدوار التاريخ الكبرى .

أماالدور الثاني فيذهب من منتصف القرن العاشر ليصل إلى نهضة إيطاليا في القرن الخامس عشر، ونهضة أوروبا عامة في القرن السادس عشر ، ففي هذه الفترة تحررت البشرية الأوروبية تدريجيا من

١- تاريخ العصور الوسطى في أوروبا ، د. نور الدين حاطوم ص ١٧ ج١ .



سلطة الدين المنحرف ، وتراجعت الكنيسة أمام الفكر العلماني ، كما تحررت من سيطرتها السلطات العامة والعلوم والفنون ، والحياة السياسية والإقتصادية .

وتفتت العصر الوسيط بتأثير الإصلاح البروتستانتي والنهضة وقوة الرأسمالية وتركيز الحكم المطلق بين الملوك ..

وهكذا يتضح أن ألف عام العصر الوسيط قد سهلت المرور من عالم الوحدة القديمة إلى عالم الكثرة الحديثة فهو إذا عصر إنتقل بالغرب من مرحلة إلى مرحلة ..





٥- سلطان الكنيسة.. وكيف نشأ؟

أ- اضطهاد وتشريد :

كان أول اضطهاد لاقاه المسيحيون عام ٦٤ في عهد الامبراطور نيرون فقد سرت إشاعة بأنه أشعل النار التي التهمت روما ، فغضب الشعب على المسيحيين فصلب كثيرا منهم وألقى بالكثيرين إلى الحيوانات المفترسة في مدرجات الملاعب وأحرق الكثيرين أحياء .

ومنذ ذلك الحين عرف المسيحيون قرابة ثلاثة قرون أدواراً من التسامح النسبي وأخرى من الاضطهادات العنيفة ، ولم تتوصل تلك الاضطهادات إلى تفتيت التنظيم الكنسي المتين في الكنيسة، بل إن هذه استمرت في توسعها وزادها الاضطهاد قوة واندفاعا ، وكان بعض المسيحيين يلتمس الشهادة طريقا مباشرا إلى الحياة الأبدية ودنيا الخلود ، ولقد أبدوا من الحزم والصبر على الشدائد ماشدّ أنظار الوثنيين ، ودفع بعضهم إلى الإيمان .

ب- الطريق إلى القوّة :

منذ سنة ٣١٣ اعترف الإمبراطور قسطنطين حسب مرسوم ميلانو بحرية جميع الأديان بما فيها المسيحية حتى أنه كان يشجعها ويكثر عطاياه لها ..

وأقام أسقف روما رسميا في قصر لاتران الملك في جنوب المدينة وشيدت الكنائس على مخطط معبد روما ككنيسة القديس بطرس في الفاتيكان ، وكنيسة القديس بولس خارج الأسوار .

وأراد الإمبراطور جوليان (٣٦١) أن يضطهد المسيحية من جديد إلا أن ذلك كان في وقت انتشرت فيه المسيحية وقوي ساعدها ..

وبعد موت جوليان في حروبه ضد الفرس سنة ٣٦٣ ظفرت المسيحية نهائيا وانطفت السلالة القسطنطينية .

وكان الإمبراطور ثودسيوس (٣٧٩-٣٩٥) قد حرم الوثنية ، وبذلك تبدلت حالة المسيحيين حيث أصبحت المسيحية دين الدولة ، وصار الوثنيون مضطهدين وانتصرت المسيحية بعد المتاعب الشديدة التي تعرضت لها .

على أن انتصار المسيحية استلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة والدولة والمجتمع وأخذت الكنيسة تكسب شيئا فشيئا صفة سلطة جديدة منافسة للسلطة العلمانية مما أوجد نفورا بين السلطتين الزمنية والروحية(١) .

ج- الكنيسة تحل محل الامبراطورية في الغرب :

بدأ تدخل الكنيسة في شؤون السلطة الزمنية يستفحل خاصة مع ازدياد ضعف الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، حتى انتهى الأمر بأن حلت الكنيسة محل الامبراطورية التي غربت شمسها

١- تاريخ العصور الوسطى في أوروبا ، د. نور الدين حاطوم ص ٦٠ ج١ .



في غرب أوروبا . ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك أنها حذت حذو الإمبراطورية الرومانية في تنظيماتها حتى أصبح الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الإداري في أقاليم الإمبراطورية . فضلا عن قيامهم بمهام التنظيم الكنسي .

والواقع أن الإعتراف بالمسيحية دينا رسميا للدولة كانت له نتائج بعيدة المدى بالنسبة للكنيسة ونظمها التي بدأت تتطور شيئا فشيئا .

ثم أخذت الكنيسة بوصفها راعية الديانة الرسمية للدولة تحصل على امتيازات خاصة من الحكومة الامبراطورية .. من ذلك حق الحصول على الهبات والإعفاء من الضرائب ، فضلا عن قيام الأساقفة تدريجيا في أقاليمهم بفضل مكانتهم الدينية من جهة وما جمعوه من الصدقات من جهة أخرى ، خاصة وأن هذه الصدقات توزع على الفقراء من قبل الأسقف نفسه ، مما أوجد طبقة من الفقراء مستعدة للتضحية بنفسها في سبيل تنفيذ مشيئة رجال الدين .

وأخذت ثروة الكنيسة تزداد شيئا فشيئا حتى امتلكت الأراضي والضياع الواسعة التي قام العبيد والأقنان بفلاحتها . هذا فضلا عن الهبات السخية التي يغدقها الأباطرة على الكنيسة والتبرعات التي يقدمها الأهالي .

د- نشأة البابوية :

وهكذا تحولت الكنيسة من منظمة بسيطة ، إلى هيئة وراثية ذات إدارة بيروقراطية مركزة . وقد تطلب هذا التيار الذي انساقت فيه الكنيسة ومحاكاتها لنظم الحكومة الامبراطورية قيام شخصية عظيمة على رأسها كما كان للامبراطورية امبراطور يتزعمها .

وهنا نلاحظ فارقا واضحا بين الشرق والغرب : ففي الشرق أسلمت الكنيسة زمامها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم في الشؤون الكنسية وخاصة فيما بين القرنين السادس والثامن ، بحيث لم يتدخلوا في سياسة الكنيسة الخارجية فحسب ، بل حتى في نظمها وسياستها الداخلية حتى غدا امبراطور القسطنطينية يمثل نوعا من القيصرية البابوية أي الجمع بين السلطتين السياسية والدينية ومن الواضح أن هذه السياسة وضعها قسطنطين نفسه حين اعترف بالمسيحية وأنشأ القسطنطينية ، واستنّ سنة جديدة لخلفائه وهي قيام الامبراطورية بدعوة المجامع الدينية العامة لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية .

أما في الغرب .. فإن الوضع اختلف كثيرا لأن الأمبراطورية الغربية أصبحت بعد تقسيم العالم الروماني ضعيفة لاتستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعا كما حدث في الشرق ، وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربية ضالتها في أسقف روما الذي تحول كرسيه إلى بابوية لهاالسيادة العليا على الكنيسة في مختلف بلدان العالم الغربي .

وفي هذه الأثناء كان الشرق البيزنطي مصراً على عناده وأخذ الأباطرة يساندون مبدأ المساواة المطلقة بين روما والقسطنطينية من حيث المركز الديني . واستمر الأمر كذلك إلى سنة ٤٥٥ حيث أصدر الامبراطور فالنشيان الثالث امبراطور الغرب مرسوما بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا[1]

١- اوروبا العصور الوسطى، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٦٧ ج١ .



وهكذا سارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية في صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجوري الأول أو العظيم (٥٩٠-٦٠٤) الذي دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها وذلك بوصفه خليفة للقديس بطرس ، أما الشرق فقد ظل مستقلا بامبراطوريته وكنيسته عن الغرب ، وبعد ذلك ازداد نفوذ البابوية وسلطانها السياسي حتى غدت تمثل إحدى القوى الحاكمة في إيطاليا ، وقد تضاعفت ممتلكاتها واتخذت لنفسها صفة الحكام العلمانيين في تعيين الموظفين والإشراف على الأعمال العامة .

وقد ساعدهم على ذلك أن صغار ملاك الأراضي في إيطاليا لم يجدوا وسط الفوضى السياسية والاجتماعية سلطة قوية يدخلون تحت حمايتها سوى الكنيسة فسلموها أراضيهم ، مختارين ذلك مقابل حصولهم على الحماية والأمن . وأخذ نفوذ النائب الامبراطوري على البابا يخبو ويتضاءل تدريجيا حتى أصبح غير ملموس .

ولم تقتصر الممتلكات البابوية على المنطقة المحيطة بروما بل انتشرت في مختلف أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية ، فضلا عن الهبات والعطايا ، ويمكن القول بأن الموارد الاقتصادية الواسعة التي نعمت بها البابوية كانت السر في القوة الزمنية التي تمتعت بها .

وقد حاولت البابوية فرض سيادتها في الناحية القضائية على الأساقفة الشرقيين بما فيهم بطريق القسطنطينية كما أنها مدت نفوذها الفعلي إلى إفريقية وغاليا واسبانيا وانجلترا .

وكان كل ذلك في عهد جريجوري الأول الذي استطاع بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهبتها أن يضرب مثلا عاليا احتذاه خلفاؤه من البابوات ، ويكفي أنه ترك لهم بناء شامخا ونفوذا روحيا واسعا وسلطة زمنية قوية .

وكانت هذه المكانة العالية التي وصلت إليها الكنيسة سرعان ما أدت إلى التنافس والصدام بين الإمبراطورية والبابوية ذلك الصدام الذي لو وجدت فيه شخصية قوية صلبة على رأس الكنيسة لتطور الامر إلى نزاع خطير بين البابوية والامبراطورية .

هـ- البابوية في أوج مجدها وقوتها تتحدى السلطة الزمنية :

وفي عهد جريجوري الثاني تحررت البابوية من سلطة الإمبراطور تحررا تاما حيث أصبحت سلطة البابا الزمنية حقيقة ملموسة في إيطاليا ، إذ استحوذ جريجوري الثاني على السلطات الامبراطورية مثل جمع الظرائب كما أصدر قرار الحرمان ضد النائب الامبراطوري ، مما يعتبر خروجا على الامبراطور . كما شدد لهجته مع الامبراطور ليو الثالث مقبحا رأيه في تحريم عبادة الأيقونات.

وبعد ذلك حاولت الإمبراطورية دون جدوى استرداد نفوذها في إيطاليا من جديد ، وكان ملك اللمبارديين محترما للبابوية ومناصرا للمسيحيين ضد أعدائهم غير أن الوضع تأزم بعد ذلك بسبب حماية البابا للامير الثاني ضد اللمبارديين ولم يجد البابا متنفسا سوى طلب المساعدة من ملك الفرنجة الذي تعذر عليه ذلك لعدة أسباب ، غير أن موت شارل مارتل وجريجوري الثالث وعودة النائب الإمبراطوري إلى إيطاليا جعل ملك اللمبارديين يدرك أن مصلحته تتطلب الاتفاق مع البابا الجديد زكريا حيث تعهد له بالمحافظة على السلام ورد جميع المدن والممتلكات التي انتزعها اللمبارديون . وبعد ذلك تحالفت البابوية مع الفرنجة خوفا من اللمبارديين الذين أخذت دولتهم في الذبول والانحلال ولم تعد تمثل خطرا على البابوية



أما البابوية فقد غدت أملاكها أقوى وحدة مترابطة في إيطاليا في حين فشلت المملكة اللمباردية في محاولتها توحيد إيطاليا وهكذا اكتسبت البابوية سلطانا زمنيا إلى جانب سلطانها الروحي . ومن الواضح أن البابوية قد تحررت فعلا وبطريقة عملية من تبعيتها للقسطنطينية .

وقد تمتع شارلمان ملك الفرنجة برضى الكنيسة ، ولعل العامل الأساسي في نجاح دولة الفرنجة كان العامل الديني وهو العامل نفسه الذي أدى إلى نجاح شارلمان في إقامة امبراطوريته وقد ردت البابوية جميل ملوك الكارولنجيين بتتويج شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ .

وهكذا قامت الامبراطورية الكارولينجية على أساس ديني سياسي ، فأخذ شارلمان يستغل مكانته بوصفه حامي البابوية في فرض سيطرته على الكنيسة داخل امبراطوريته ولم تجد محاولات البابوية للتحرر من قبضة شارلمان القوية غير أن الأمر تغير عندما عجز خلفاء شارلمان عن فرض سيطرتهم على الكنيسة . ولكن الكنيسة فقدت سندا هاما لها بفقدانها شارلمان حيث تركها وحيدة في الميدان وسط مظاهر الفوضى الشاملة والأخطار الخارجية التي تعرضت لها منذ القرن التاسع ولم يقتصر هذا التدهور على البابوية وحدها بل امتد إلى بقية الجهاز الكنسي حتى اختلت أحوال الكنيسة الغربية بوجه عام في الفترة الواقعة بين القرن التاسع ونهاية القرن الحادي عشر .

و- الإصلاحات الكنسية ، والخلاص من أيدي العلمانيين ومصارعتهم :

بدأت الكنيسة تسعى بخطى حثيثة لتتحرر من السلطة الزمنية بل ولتبين فضلها عليها ، وقد ظهر ذلك خاصة في تتويج شارل الثاني امبراطورا بيد البابا حنا الثامن سنة ٨٧٥ ليؤكد أن الامبراطور صنيع البابوية وربيبها . وظهر هذا الأمر كذلك في لجوء رجال الكنيسة إلى تزوير وثيقتين لاختلاف سوابق تستند إليها البابوية في تأكيد سيادتها على الملوك ، وعلى بقية رجال الكنيسة من جهة أخرى.

وفي هذه الفترة رغم أن الكنائس المحلية في مختلف غرب أوروبا ظلت تنظر إلى البابا على أنه زعيمها الروحي ، إلا أن نفوذ البابا على هذه الكنائس لايعدو أن يكون اسميا وتدخل الملوك بعد ذلك في اختيار البابوات وانبعث من بعض المخلصين دعوات لإصلاح مافسد في الكنيسة ورجالها .

ومع جريجوري السابع بدأت صفحة جديدة في تاريخ البابوية بل في تاريخ الكنيسة الغربية في العصور الوسطى . وقد باشر جريجوري السابع محاولاته الجادة لإعادة سلطان الكنيسة والقوة العليا للبابوات وتتلخص آراء هذا البابا الخطيرة فيما يلي :

- البابا وحده هو الذي يتمتع بسلطة عالمية .
- البابا يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم .
- جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده .
- للبابا الحق في غزل الأباطرة .
- لايجوز عقد أي مجمع ديني عام إلا بأمر البابا .
- ليس لأي فرد أن يلغي قراراً بابويا في حين أنه من حق البابا أن يلغي قرارات بقية الناس .
- للبابا أن يجيز لرعايا أي حاكم علماني التحلل من العهود وأيمان الولاء التي أقسموها لحاكمهم



وهكذا جاءت هذه الآراء الخطيرة معبرة عن إيمان جريجوري القوي بأن إصلاح العالم يكمن في خضوعه للكنيسة وخضوع الكنيسة للبابوية وقد سعى في تطبيق هذه الآراء بجدية وعزم وصلابة . وكان الأمر ينذر بوقوع صدام عنيف وحاد بين الحكام العلمانيين وبين البابوية .

غير أن جريجوري السابع لم يعتمد في تنفيذ إصلاحاته على سلاح التشريعات والأوامر البابوية فحسب ، ولكنه اعتمد أيضا على سلاح قوي هم رجال الأديرة الكلوتية أو الرهبان السود كما يسميهم المعاصرون ، وكان هؤلاء الرهبان قوة عظيمة ساندت البابا في سياسته واعتمد عليهم في تنفيذها .

وقد استغل جريجوري السابع فرصة الاضطرابات التي نشبت في سكسونيا فأصدر قرارا بمنع جميع القساوسة المتزوجين في المانيا من مباشرة الطقوس الدينية في الكنائس وبعدها بعدة أشهر أصدر قرار عنيفا ضد التقليد الديني مما جعله في صدام مباشر مع الملك هنري الرابع الذي انزعج لهذا القرار . وبدأت الحرب السافرة بينهما عندما عقد مجمعا آخر قرر فيه توقيع الحرمان على هنري الرابع وعزله من منصبه وتحرير جميع رعاياه واتباعه من أيمان الطاعة والتبعية التي أقسموها. ولاشك أن موقف الملك كان أحرج بكثير من موقف البابا الذي يستطيع أن يعتمد على عطف كثير من أبناء العالم المسيحي فضلا عما يمكن أن يستند إليه من الكتابات الدينية التي تشهد بسمو مركز الكنيسة ورجالها .

وتلفت هنري الرابع حوله فلم يجد له نصيرا على قوة البابوية التي لاترحم . خاصة وأن أمراء المانيا وأساقفتها قد هددوه باختيار ملك غيره إن لم يغفر له البابا في مدة حددوها ، فلم يجد مناصا من الإرتماء عند أقدام البابا طالبا مغفرته وعفوه وكان أن غفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطا قاسية . وبهذا المسلك الخطير يكون الملك هنري الرابع قد اعترف بحق البابوية في عزله من وظيفته وحرمانه من رعاية الكنيسة . وهنا نقرر أن الضربة التي انزلتها البابوية بالامبراطورية كانت قاصمة، ولم تسترد الاخيرة هيبتها ومكانتها بعد ذلك مطلقا .

وبعد ذلك تواصل الصراع والكفة مره هنا ومرة هناك إلى أن شغل منصب البابوية أوربان الثاني الذي يشبه جريجوري السابع في تحمسه للإصلاح الكنسي ولكنه يفوقه في الحرص والمهارة في اختيار الوسائل التي ينفذ بها أغراضه . وكان أن عمل على توحيد حركة المقاومة ضد هنري الرابع رغبة في الصلح لكن الشروط التي وضعتها البابوية جعلت الصلح أمرا متعذرا ولذلك فقد أصدر البابا قرار الحرمان ضد هنري الرابع وحرض على القيام بثورة ضده وكانت الثورة بزعامة ابنه هنري الخامس ، فتنازل له ، إذ لم يبق لديه من العزم مايكفي للدخول في صراع مع البابوية من جديد.

ومع هنري الخامس تجددت مشكلة التقليد الديني وساهمت عدة ظروف في جعل البابا يرضخ لهنري الخامس الذي أصبحت له الحرية في تعيين الأساقفة وتقليدهم حسبما يرى . وهكذا يكون قد ثأر لما حل بأبيه في كانوسا .

ولكن الضغوط على البابا من بعض المخلصين للكنيسة جعلته ينقض اتفاقيته مع الملك باعتبار أنها كانت تحت تأثير الإرهاب ، فأخذت الصعاب تحيط بهنري الخامس من جديد .

وفي عهد البابا كالكستس أظهر هنري الخامس استعدادا للتفاوض والتفاهم غير أن التشكك من الجانبين أدى إلى الدخول في تفاصيل صغيرة حتى انتهى الأمر بقطع المفاوضات وتوقيع قرار الحرمان ضد



هنري الخامس سنة ١١٢٠ .

ز - البابوية تخرج من الصراع مرفوعة الرأس :

ثم عادت الرغبة في التفاهم بين الطرفين ووقعت اتفاقية رومر سنة ١١٢٢ ونخرج من هذه الاتفاقية بأن الامبراطورية دخلت النزاع مع البابوية حول التقليد الديني وهي في أوج قوتها وسلطانها وخرجت من هذا النزاع مكسورة الجناح ..

وإذا كانت هذه الاتفاقية قد أنهت الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية حول التقليد الديني إلا أنها لم تضع حدا للصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية لأن هذه الاتفاقية لم تمس بجوهر النزاع : أي السلطتين أقوى ؟ ..

وفي عهد اسكندر الثالث اتخذ الصراع شكلا أكثر حدة ، بين الإمبراطورية والبابوية في وقت بدأت فيه الامبراطورية تضعف حيث استطاعت جيوش المدن الناشئة لأول مرة أن تهزم الجيش الامبراطوري ، وذلك في موقعة لنيانو . وبذلك ازداد نفوذ البابا زيادة كبيرة حتى في المانيا نفسها . وفي البندقية تكررت تمثيلية كانوسا بعد مرور مائة عام بالضبط . فأتى الإمبراطور العظيم فردريك الاول ليرتمي بين قدمي البابا اسكندر الثالث باكيا طالبا الصفح والغفران . ورضى برد جميع الاراضي المغتصبة من البابوية ، وساد بعد ذلك هدوء نسبي ساعد فردريك الأول على الاعتناء بشؤون ألمانيا .

وفي الوقت الذي أصرّ فيه البابا أوربان الثالث على موقفه ضد الامبراطور واستعد لإصدار قرار الحرمان ضده جاءت الأخبار من الشرق بانتصارات صلاح الدين على الصليبيين بالأراضي المقدسة سنة ١١٨٧ وبعدها بأيام توفى البابا أوربان الثالث فعمل خليفته جريجوري الثامن على لم شعث القوى المسيحية لإرسال حملة جديدة إلى الشرق لتثأر للصليبيين . وسعى خلفاؤه بعد ذلك بكل جهودهم لتوحيد الغرب الصليبي ضد الشرق الإسلامي .

وهكذا انتهى النزاع بين البابوية والامبراطورية بعد أن عجز الأباطرة عن إخضاع البابوات وإدخالهم تحت سيطرتهم .. ذلك لأن الأباطرة لم يحسبوا حسابا لروح العصور الوسطى .. عصور الايمان بالكنيسة والتمحور حولها .

* * *





٦- المسلمون والمسيحيون في الشرق

أ- الفتوحات الإسلامية :

ماإن استقرت الأحوال للمسلمين في شبه الجزيرة العربية ، حتى بدأوا يعملون على نشر الإسلام خارجها ، وقد بدأ ذلك واضحا في عهد أبي بكر رضي الله عنه والخلفاء الراشدين من بعده ، حيث فتح المسلمون كامل بلاد الشام والعراق ، ثم استولى المسلمون على قيصرية سنة ٦٤٠ وبذلك فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبي طرطوس(١) .

ثم فتح المسلمون مصر ، ويعتبر هذا الفتح بالذات دليلا قويا على مدى نجاح حركة الجهاد الإسلامي وضعف الامبراطورية البيزنطية . وبعد ذلك توقفت هذه الفتوحات فترة من الزمن بسبب بعض الخلافات الداخلية التي انتهت بقيام الخلافة الأموية في دمشق سنة ٦٦٠ . ثم استأنف المسلمون فتوحاتهم بنفس القوة والحماس ففتحوا إفريقية حتى المحيط الأطلسي رغم اصطدامهم بالبربر إلى جانب القوة البيزنطية .

وتمكنوا من الاستيلاء على سردانيا ثم فتحوا اسبانيا سنة ٧١٣ وبذلك بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية ، إذ فقدت بلادا ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل الشام ومصر فضلا عن بلاد أخرى كانت بمثابة أعضاء أساسية في العالم المسيحي مثل شمال إفريقية وأسبانيا.

وزاد من خسارة العالم المسيحي أن أقبلت نسبة كبيرة من الأهالي على اعتناق الإسلام عن اختيار وإرادة حرة(٢) ..

ولاشك أن هذه الفتوحات الإسلامية التي كانت على حساب المسيحيين في الشرق لم تغضب المسيحية فحسب ، ولكنها أيضا أغضبت أباطرة الدولة البيزنطية الذين رأوا فيها خطرا كبيرا على كيانهم ورغم التسامح الكبير الذي تحلى به المسلمون تجاه المسيحيين ، إلا أن هؤلاء لم يروا في هذا الدين الجديد إلا قوما خرجوا من ديارهم ليبتلعوا بلادا سبقت إليها المسيحية وانتشرت فيها وصارت تعتز ببقائها في حوزتها ، ولذلك فإن رجال الكنيسة لم يستطيعوا نسيان الخسارة التي لحقت بهم وبكنيستهم نتيجة لانتشار الإسلام مما جعلهم دائما يشعرون بالرغبة في الانتقام من الاسلام والمسلمين .

ب- المسلمون يحكمون :

ومهما يكن من أمر فإن المسيحيين في الشرق قد قبلوا سيطرة المسلمين إذ لم يكن في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك في وقت بدا فيه الاحتمال ضئيلا في نهوض بيزنطة من جديد .

وترتب على الفتح الاسلامي تجمد الكنائس الشرقية ، وقد حاولت الامبراطورية المسيحية دون جدوى فرض وحدتها الدينية على سائر المواطنين(٣) .

١-الحركة الصليبية د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص٤٦ ج١ .

٢- نفس المرجع السابق ص٤٧ ج١ .

٣- تاريخ الحروب الصليبية ، ستيفن رنسيمان ج١ ص ٤٨ .



وفي ظل الحكم الإسلامي سمح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية وعاشوا عيشة طيبة يدفعون الجزية مقابل حمايتهم ، ورغم كل ذلك فإنهم لم ينسوا أحقادهم تجاه المسلمين أبدا .

وأثناء الفوضى التي صاحبت سقوط الأمويين تعرض المسيحيّون لبعض الأذى ، إلا أن انتصار العباسيين أعاد الامر إلى نصابه ..

وقد ظلت ظاهرة هجرة المسيحيين إلى بلاد الامبراطور مستمرة دون أن يتخذ المسلمون إجراءات لمناهضتها[1] ، ولم يمنع المسيحيون في داخل بلاد الخلافة وخارجها في أوقات الحرب والسلم من إقامة علاقات وثيقة بينهم ، غير أن الامبراطور البيزنطي لم يكن في وضع يسمح له بمساعدة إخوانه في الدين .

وعندما أوشك شارل الكبير أن يتوج امبراطورا في روما أهتم اهتماما خاصا برفاهية الأماكن المقدسة في فلسطين ، فرحب الخليفة هارون الرشيد بذلك الأمر لأنه عثر على حليف ضد بيزنطة فبذل له كل تشجيع لإنشاء مؤسسات في بيت المقدس ، ولإرسال الصدقات إلى كنيسة القيامة ، الأمر الذي جعل الأرثوذكس في فلسطين يعربون عن تقديرهم لشارل الكبير ، إلا أن ضعف أخلافه ونهوض بيزنطة جعلا تدخل الفرنجة قصير الأجل .

ومع ذلك فقد كان لهذا الامر أهمية بالغة في الغرب حيث شاع أن شارل أجرى حماية شرعية على الأماكن المقدسة ، وأنه قام بنفسه بالحج إلى تلك الجهات وبذلك جرى الاعتراف بما للفرنجة في الاجيال المتأخرة من حق الحكم في بيت المقدس .

ج- استيقاظ بيزنطة :

اشتد اهتمام المسيحيين بإفاقة الدولة البيزنطية التي ظلت تلتزم خط الدفاع خلال القرن التاسع حيث سقطت "كريت" و"صقلية" في أيدي المسلمين وكادت كل سنة تشهد غارة عنيفة للمسلمين في جوف آسيا الصغرى .

وتوالى على السلطة عند المسلمين أسرات حاكمة محلية أهمها الجدانيون بالموصل وحلب والاخشيديون ، وقد كانوا لفترة من الزمن سياجا منيعا للدولة الإسلامية ، إلاأنهم لم يستطيعوا منع تداعي الدولة الإسلامية ، بل ساهموا فيه بتشجيع الحروب الداخلية التي استفاد منها البيزنطيون بشكل جيد ، فحازوا سنة ٩٤٥ مناطق لم يدخلها جيش مسيحي منذ ثلاثة قرون ، كما استردوا جزيرة "كريت" وصقلية ، وقاموا بعدة حملات نهض لها كل الشرق المسيحي ، وأدرك أن وقت الخلاص وشيك الوقوع حتى أن بطريق بيت المقدس كتب إلى الامبراطور البيزنطي يستحثه على القدوم إلى بيت المقدس .

واستمر تقدم البيزنطيين داخل الأراضي الإسلامية حتى استعادوا أنطاكية وحلب وحمص وحماه، إلا أن اهتمام البيزنطيين بأوضاعهم الداخلية ظهرت خلاله حركة يقظة في العالم الإسلامي قام بها الفاطميون الذين استقروا بمصر وامتد حكمهم إلى جنوب الشام ، وحاولوا استعادة أنطاكية ولكن الامبراطور زمسكيس وجه اهتمامه للشرق من جديد ، وفي ظرف خمس سنوات تقريبا أضحت الامبراطورية المسيحية مرة أخرى من أكبر الدول في الشرق ، وصارت لحروبها مع المسلمين صفة الحروب الدينية ، حتى أن كلاً

١-- تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنسيمان ج ١ ص ٣٩ .



من نقفور ويوحنا أعلنا أن القتال وقتئذ من أجل إعادة مجد العالم المسيحي وإنقاذ الأماكن المقدسة وتدمير الإسلام(١) .

وقوبلت هذه النظرة بمثلها في العالم الإسلامي حيث حدث سنة ٩٧٤ في بغداد من الثورات ما أرغم الخليفة على إعلان الجهاد المقدس ..

ثم وقع بعد ذلك صلح بين البيزنطيين والفاطميين لأن كلا منهما أزعجه ما حدث من نهوض الخلافة في بغداد على أيدي الترك القادمين من وسط آسيا .

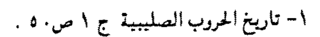
وتواصلت بعد ذلك هجمات البيزنطيين على العالم الإسلامي وقد أخذت طابعا صليبيا بحتا وأخذوا يجزئونه مستغلين التناقضات الداخلية بين مصالح أمراء المسلمين .

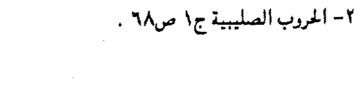
ومن الواضح أن الحرب التي شنها البيزنطيون على المسلمين سنة ٩٧٥ لم تحقق هدفها الصليبي سوى تحقيقا جزئيا لانهم رجعوا قبل تأمين مكاسبهم والوصول إلى بيت المقدس . وكانت هذه الحملات البيزنطية المبتورة قد أدت إلى إشكالات ومناقشات قانونية بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول ملكية المدن الكبرى ببلاد الشام .

وقد قنع الامبراطور البيزنطي بالسيطرة المباشرة على انطاكية وسيادته غير المباشرة على حلب واعترف سعد الدين الحمداني بالتبعية للدولة البيزنطية عندما عجز عن مقاومتها ورأى فيها ضمانا كافيا لحماية أنفسهم من مطامع الفاطميين ، وهكذا تطور نزاع الحمدانيين والفاطميين إلى نزاع بين البيزنطيين والفاطميين ، ولكن مشاغل الامبراطور البيزنطي في البلقان اضطرته إلى القيام بصلح مع الفاطميين ولكن عمر هذه الهدنة لم يدم طويلا ، وتواصلت الحرب سجالا بينهم وهكذا ظلت العلاقة بين الطرفين تتحسن حينا وتسوء أحيانا حتى قيام الحروب الصليبية ، وقد حالت بيزنطة دون امتداد النفوذ الفاطمي إلى ماوراء انطاكية . وكان تقاعس البيزنطيين قد أدى إلى تمكن الفاطميين من فرض سيادتهم على حلب وظلوا فيها حتى قيام بني كلاب بطردهم منها سنة ١٠٢٣ مع تواصل النزاع بين الطرفين بعد ذلك .

أما البيزنطيون فقد فقدوا كل نفوذهم في حلب واستطاع شبل الدولة المرداسي أن ينزل بهم هزيمة نكراء غنم فيها المسلمون كل ما كان مع البيزنطيين .

ثم حصلت منازعات داخلية في الرها استغلها القائد البيزنطي مانياكس فاستطاع بفضل مساعدة مسيحي الرها أن يقتل المسلمين فيها ويخرب مساجدهم ، ولم تفلح نجدة الفاطميين في الحول دون سيطرة الروم على الرها التي بقيت تحت نفوذهم حتى وصول الصليبيين في أواخر القرن الحادي عشر(٢) . وفي تلك الأثناء لم يكف السلاجقة عن مهاجمة أراضي الامبراطورية والتوسع على حسابها في آسيا الصغرى على الرغم من أن وفاة ملك شاه سنة ١٠٩٢ وما رافقها ساعدت على تقليل خطرهم مؤقتا ولم يجد الكسيوس وسيلة يستعين بها لدفع هذا الخطر سوى الاستنجاد بالبابوية عدة مرات حتى انتهى به الأمر إلى إرسال بعثة إلى البابا أوربان الثاني لشرح خطر السلاجقة على المسيحية بوجه عام ، ومنذ هزيمة البيزنطيين في "مانزيكرت" سنة ١٠٧١ لم ينقطع أباطرة الشرق عن طلب المعونة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين .


١- تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص٥٠ .


٢- الحروب الصليبية ج١ ص٦٨ .



د- الحج :

لقد كان الحج من الفرص الكبيرة التي أتاحت احتكاك المسيحيين بالمسلمين ولعلها كانت كذلك من أهم العوامل التي أثارت الحروب الصليبية ، إذ أن الصليبية قد نادت كثيرا في صفوف المسيحيين في الغرب بضرورة حماية الحجاج إلى بيت المقدس ، كما أنها نددت بما يلاقيه هؤلاء الحجاج من أذى من قبل المسلمين .

وقد كانت مواكب الحجاج المسيحيين تفد من أوروبا إلى بيت المقدس مكونة شبه مظاهرة أو فيلق حربي فكان الحجاج عبارة عن فوج كبير من الناس يحمل بعضهم المشاعل ويلعب آخرون بالسيوف وحولهم الطبول والزمور ويحيط بهم حرس مدججون بالسلاح .

وعندما كان السلطان في يد المسلمين العرب قبل العهد السلجوقي لم يكن هناك اعتراض على هذه المواكب فقد كان التسامح الديني من أبرز صفات العرب المسلمين ، فلما انتقل النفوذ على بيت المقدس إلى السلاجقة لم يستطع هؤلاء أن يتسامحوا مع هذه المواكب إلى هذا الحد وبخاصة وأن هذه الجموع مارست فعلا أعمال استفزاز واعتداء .

ويذكر بعض المؤرخين أن رئيس أساقفة مابانس وأربعة أساقفة آخرين قادوا قافلة من سبعة آلاف حاج تشتمل على بارونات وفرسان ، فحاربت هذه القافلة الأعراب والتركمان(١) . ولهذا السبب منع السلاجقة السلاح والمشاعل والطبول والحرس المدجج بالسلاح وأعلنوا أنهم هم المسؤولون عن سلامة الحجاج الأوروبيين وأمنهم .

وقد أثار هذا التصرف ثائرة مسيحيى الغرب واعتبروه تضييقا على الحجاج ومقاومة للمشاعر الدينية وقضاء على تقاليد أصبحت لدى المسيحيين حقوقا لم يستطيعوا التنازل عنها ، وقد دفع هذا التصرف رجال الدين بأوروبا أن يشجعوا بعض الأشداء ليصحبوا ركب الحجاج ويدافعوا عنه عند اللزوم ووجد رجال الدين في المجرمين والعصاة طلبتهم ، فأعلنوا أن الحج وحده هو الذي يكفر عن الكبائر والمنكرات . وقد نتج عن ذلك أن وفد للأمكنة المقدسة عدد كبير من المجرمين المتمرسين على ارتكاب أخطر الجرائم . وقد قابل المسلمون هذا التصرف بتشديد الرقابة على وفود الحجاج مما نتج عنه مزيد من الحدة والتوتر بين الجانبين .

١- موسوعة التاريخ الاسلامي -أحمد شلبي ج ٥ ص٥٠٠ .



٧- أحوال الشرق الإسلامي قبل الغزو الصليبي

إن إلقاء نظرة سريعة على الشرق الإسلامي قبيل الغزو الصليبي كفيل بأن يوضح لنا لماذا اندحرت الجموع الإسلامية أمام العدوان الصليبي في بداية هجومه . لقد كان الشرق الإسلامي خاضعا لعدة قوى سياسية سيئة العلاقة فيما بينها ، بحيث كانت الظاهرة البارزة هي التفكك والصراعات المسترسلة التي تذكيها المصالح الشخصية للحكام ، أما الشعور بالمسؤولية المشتركة لحماية أراضي المسلمين فقد كان غائبا غيابا تاما عن الساحة ، ولبيان هذا الأمر سنلقي نظرة على أهم القطاعات الإسلامية لنرى مدى ضعف المسلمين ..

أ- مصر :

لقد بلغ التحدي الفاطمي للدولة العباسية ذروته سنة ٤٥٠ ، وهي سنة الاستيلاء على بغداد باسم الفاطميين ، لكن عدم تمكنهم من تثبيت وجودهم في بغداد أحدث ردود فعل عنيفة ، تأثرت بها كل مناطق النفوذ الفاطمي بما في ذلك مصر[١] .

وقد انهمكت مصر إثر ذلك في حرب أهلية بين الجنود الأتراك تحت قيادة الحسن بن الحسين ابن حمدان وجماعة من العبيد الموالين للخليفة الفاطمي ، ودامت أكثر من عشر سنوات ، ولايخفى ماللحرب الأهلية من استنزاف لطاقات وإمكانات الامم ، وهذا ماحدث فعلا للدولة الفاطمية حيث صاحب الحرب الأهلية ما اصطلح عليه بسنوات "الشدة" لقسوتها حيث كثر فيها الموت ، وازداد الخلاف بين الولاة والرعية ، واشتد الغلاء ، فاستولى الخراب على البلاد وانقطعت السبل برا وبحرا ، وجلا من مصر أهلها ، وأدى كل ذلك إلى اضطراب في الحياة السياسية للدولة الفاطمية . وكان كل هذا بإيعاز من العباسيين السلاجقة إضافة إلى ماحدث من مشاكل داخلية .

وبهذا كثرت عوامل الضعف في الدولة الفاطمية وأشرفت على الانهيار لولا أن الخليفة العباسي فوض كل أمور الدولة والحكم إلى مايسمى آنذاك بأمير الجيوش ، وهذا الوضع وان كان قد ساهم في تمديد عمر الدولة الفاطمية والقضاء على بعض مشاكلها ، إلا أنه لم يعد بها إلى فتوّتها ذلك أن السيل قد جاوز الذرى . وقد نتج عن هذا الوضع ظاهرة خطيرة مخربة للدول .. تلك هي ظاهرة الازدواج في قمة السلطة . وحدث أن وقع خلاف شخصي بين أمير الجيوش وبين ولي عهد الخليفة المستنصر فحول الخلافة منه إلى أخيه وكان ذلك طعنة قاتلة في صميم الكيان الفاطمي الذي انقسم إلى اتجاهين ، أحدثت بينهما حربا أهلية زادت في ضعضعة الدولة وساهمت في قرب نهايتها ، ثم انقسمت البلاد على نفسها . ولاشك أنها في هذه الحالة لقمة سائغة وثمرة يانعة لكل راغب في الاستيلاء عليها .

وفي هذا الوقت كانت الجحافل الصليبية تزحف نحو الشرق الإسلامي ، وأنى لمصر وهي في هذه الحالة من الضياع والتمزق أن تقف أمام هذه الجحافل التي يبدو أنها على علم بما يحدث فاختارت الوقت

١- الجبهة الاسلامية - ج ١ ص ١٩٠ .





المناسب للإغارة على العالم الإسلامي .

ب- العراق :

كان البويهيون في العراق يمثلون وضعا شاذا وغريبا بالنسبة للخلافة العباسية لمخالفتهم لها في الوجهة السياسية ، ذلك أنهم كانوا يعتنقون المذهب الزيدي ويمارسون سلطانهم وفق تعاليمه ، مما حدا بالخليفة العباسي القائم إلى أن يطلب من السلاجقة تخليصه منهم وقد حدث ذلك في سنة ٤٤٧ وبذلك قضى الخليفة العباسي على هذا الوضع الشاذ .

وقد تعرض الحكم السلجوقي في العراق في البداية إلى مؤامرات الفاطميين ، غير أن القائمين عليه ثبتوا دعائم الحكم ، وتغلبوا على تلك المؤامرات .

وفي سنة ٤٨٥ توفي ملكشاه فتنازع أبناؤه الأربعة السلطة فيما بينهم ، وكان الصراع بينهم حادا وعنيفا مما ساهم في ضعضعة الأحوال ..

وهكذا كانت السلطة في العراق مزدوجة بين العباسيين والسلاجقة ، ولاشك أن هذا الازدواج يمثل جانبا أساسيا من عوامل الضعف ، إذ أن المصالح المتضاربة كانت كفيلة بقلب الاتفاق الظاهري إلى اختلاف يصل أحيانا إلى حد التطاحن والتصارع . وكان السلطان السلجوقي في موقف قوة فهو الذي أسقط الحكم البويهي الذي كان يهدد كيان الدولة العباسية واستغل هذه النقطة ليقهر الخليفة العباسي الذي أصبح مغلوبا على أمره يقاد فينقاد .. ويتمثل هذا جليا في قبوله مكرها تزويج ابنته من طغرل بك[1]

ومن يتتبع حركة توسع السلاجقة يعرف أن نواياهم كانت متجهة إلى الاستيلاء على العراق والدولة العباسية ، فلابد إذا من وقوع الخلاف والصدام بين القوتين . وقد بلغ الأمر ذروته حينما أمر السلطان السلجوقي الخليفة العباسي بمغادرة مدينة بغداد ، ورفض أن يمهله مدة كافية لمغادرة العاصمة العباسية

وفي مثل هذا الجو من الاحتدامات والصراعات الداخلية ، سواء بين السلطتين أو داخل السلطة الزمنية ، لم يكن من المعقول أن نجد في بغداد تكتلا يستطيع أن يقف في وجه الخطر الصليبي .

وهكذا يتضح أن القوتين الكبيرتين في الجبهة الاسلامية لم تكن تسمح لهما ظروفهما بالمساهمة المطلوبة بالتصدي للغزو الصليبي .

ج- الشام :

من المسلم به أن بلاد الشام تحتل مكانة خاصة في تاريخ الحروب الصليبية إذ أنها أصبحت فيما بعد موطنا لهم . وقد كانت منقسمة إلى عدة وحدات سياسية من أهمها إمارة حلب في الشمال وفلسطين في الجنوب وبينهما دمشق .

أما حلب .. فهي تتمتع بموقع هام لأنها تمثل نقطة اتصال بين الشام وآسيا الصغرى والجزيرة وشمال العراق لذلك فإن الدفاع عن الشام يجب أن يعتمد على قوة المقاومة في حلب . وفي أواخر القرن الخامس مرت حلب بثلاث مراحل رئيسية لم تنعم الإمارة خلالها بالإستقرار والطمأنينة .

١- الجبهة الاسلامية - ج ١ ص ٢٧٠ .



وقد كان يحكم حلب في المرحلة الأولى المراديون (نسبة إلى صالح بن مرداس الكلابي) ونظرا لأهمية موقع حلب فقد سعى الفاطميون للسيطرة عليها فتخلى لهم عنها أحد الحكام المرادسيين مقابل بيروت وعكا وجبيل .

وكانت الاتجاهات السياسية للأسرة المرداسية موزعة بين الولاة للفاطميين والتبعية للخلافة العباسية . وقد نمت هذه الظاهرة خاصة عندما انتزعت بغداد من الفاطميين مما شجع بعض أحفاد صالح بن مرداس على استعادة حلب ثانية من أيدي الفاطميين الذين ضغطوا على حاكم عكا وبيروت وجبيل وصرفوه عن هذه المناطق باعتبار أنها أخذت بدلا عن حلب ، وطلبوا منه استعادتها من ابن أخيه (محمد بن نصر بن صالح) ، وزودوه بكل مايحتاج إليه ، فتمكن من استردادها ، الشيء الذي دفع محمود إلى أن يطلب العون من البيزنطيين ولكن دون جدوى . ولا شك أن الزعيم الكلابي بهذا التصرف قد لفت انتباه الامبراطور البيزنطي إلى مايدور في الشرق الإسلامي ، ولعل الصليبيين قد عرفوا الكثير من التطورات التي كانت تقع في الجبهة الإسلامية عن طريق الحاكم المرداسي .

وبعد ذلك لم تشهد مدينة حلب استقرارا سياسيا فأضحت ميدانا للصراع الحاد العنيف مما فتح الباب على مصراعيه لتدخل القوى الأجنبية التي أصبح لها دور هام في تحريك الأحداث في مدينة حلب .

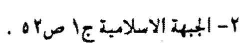
ولاشك أن هذا الصراع الذي دام قرابة سبعة أعوام قد استنزف قوى حلب إضافة إلى أن الاستقرار الذي تم فيها بعد ذلك إنما كان بجهود أجنبية معادية كشفت أسرار هذه الناحية من نواحي الجبهة الإسلامية التي أصبحت تدين بالولاء والتبعية لهم ، ولاأدل على ذلك من رد محمد بن نصر عندما طلب منه الخليفة الفاطمي أن يغزو الروم كبرهان على ولائه للخلافة الفاطمية حيث قال : « وأما الروم فقد هادنتهم مدة وأعطيتهم ولدي رهينة على مال اقترضته منهم فلاسبيل إلى محاربتهم »(١) .

ولكن بعد ذلك تجاوب مع الفاطميين الذين خلعوا عليه الخلع والألقاب الشيء الذي أعاد للفاطميين مركزهم السياسي والأدبي في مدينة حلب . ولكن هذا الأمر لم يدم طويلا حيث أعلن محمود تبعيته وولاءه للخلافة العباسية وأجبر أهل حلب (وهم على الدعوة الفاطمية) على ذلك ، ثم اتسمت سياسة محمود بعد ذلك بالتذبذب فهو كما قال عنه الذهبي « كان يداري المصريين والعباسيين لتوسط داره بينهما »(٢) .

ثم نبذ محمود ولاءه للفاطميين ثانية وبقى على ذلك إلى أن مات سنة ٤٦٧ فخلفه ابنه نصر في وقت كانت فيه ظروف المنطقة تؤذن بسقوط أسرة بني كلاب حيث كانت المنطقة كلها تموج بنزاعات عنيفة وتتخبط في سلسلة من الأحداث والتطورات نتيجة التنازع على النفوذ بين الزعماء المسلمين آنذاك . ولم يستقر الوضع إلا عندما استولى على حلب الزعيم العقيلي مسلم بن قريش الذي كان يدين بالولاء والتبعية للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي .

وبدأ هذا الاستقرار يضعف شيئا فشيئا إذ يبدو أن ولاء الزعيم العقيلي للعباسيين كانت تمليه الظروف ، فإنه قد استعمل بعد ذلك السياسة ذات الوجهين وفقا لطبيعة الأحداث .

١- الجبهة الاسلامية - ج ١ ص٤٩٠ عن النجوم الزاهرة ج٥ ص٧٩ .


٢- الجبهة الاسلامية ج١ ص٥٢ .



وبعد موت العقيلي عادت الصراعات من جديد حول مدينة حلب ، ولكنها في هذه الفترة كانت بين ابني عمومة وأخوة ..

واستمرت الصراعات وفي كل مرة تزداد ضراوة عن سابقتها وكان أبرز مافيها هو التذبذب في الولاء تبعا للمصلحة ..

وهكذا يبرز لنا المدى البعيد الذي وصلت إليه مدينة حلب في الضعف والإنهاك .. جيوش محطمة خائرة ، عداوة وشحناء وبغضاء بين الزعماء في تلك المنطقة ، تذمر الأهالي وسخطهم .. فأنى لحلب وهي على هذه الحالة أن تقوم بالدور المنتظر في صد الغزو الصليبي ، ولاشك أن أمراض حلب ماهي إلا صورة جزئية لما كانت تعاني منه كل مناطق الجبهة الإسلامية في تلك الفترة الحرجة من تاريخنا .

د- دمشق :

إذا كان صراع الخلافتين العباسية والفاطمية حول مدينة حلب لم يكن مباشرا فإن طبيعة منطقة دمشق فرضت عليها أن يكون الصراع حولها مباشرا .

وقد كانت دمشق (الفاطمية في ذلك الوقت) تعاني من أزمة اقتصادية قاسية ، تأثرا بالأزمة التي كانت تعيش فيها مصر ، وإضافة إلى ذلك ، فقد تصاعد الشقاق بين الحكام وأهل المدينة إلى حد كانت فيه الحرب الأهلية على وشك الوقوع .

وفي مثل هذه الظروف السيئة تعرضت دمشق لحصار شديد من قبل السلاجقة الذين اضطروا للتراجع أمام صد أنصار الخلافة الفاطمية . وأخذ السلطان السلجوقي يعد لمعاودة الكرة ، فكان يغزوهم كل سنة مرة الشيء الذي أضعف اقتصاديات البلد فارتفعت الأسعار وانقطعت المؤونة عن البلد ، وجلا عنها أكثر أهلها وليس هذا فحسب بل إن العلاقات المتوترة بين مختلف العناصر داخل دمشق أدت إلى هروب الوالي الفاطمي ناجيا بنفسه ، كما أن خلفه لم يحض بالقبول من القاعدة الشعبية فاشتدت الأزمة واستسلمت البلاد بالأمان للغازي السلجوقي .

وهكذا تحولت دمشق إلى الشق العباسي وانتهت تبعيتها للخلافة الفاطمية ، بيد أن الصراع من أجل السيطرة على المنطقة لم ينته بل على العكس ازداد حدة وضراوة لأن الفاطميين قد ألقوا بكل ثقلهم في المعركة حرصا على استعادة دمشق ، غير أنهم باءوا بفشل ذريع وخاصة بعد أن تدخل تتش بن أرسلان الذي انفرد بعد ذلك بإمارة دمشق التي نعمت في عهده بهدوء نسبي حرمت منه سنوات طويلة . وبعد موته دار صراع مرير بين ولديه أوبالأحرى بين حلب ودمشق المركزين الأساسيين للجبهة الإسلامية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي مباشرة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد زحفت القوات الفاطمية على دمشق في نفس السنة التي زحفت فيها جحافل الصليبيين ..

فأنى لدمشق وهي تعاني من كل هذه السلبيات أن تقوم بالدور المنتظر منها لصد العدوان الصليبي ؟

هـ- فلسطين :

كانت فلسطين في منتصف القرن الخامس الهجري تحت نفوذ الفاطميين ، ثم أصبحت تابعة للعباسيين بعد ذلك على يد القائد السلجوقي أتز ، وكانت سيطرته على بيت المقدس أمرا بغيضا بالنسبة لأهلها ، فأخذوا يتحينون فرص التمرد عليه ، وعلى الخلافة العباسية من ورائه إلى أن تمكنوا من ذلك سنة ٤٦٩



عندما كان اتز يحاول الاستيلاء على مصر فخلعوا الطاعة وثاروا على رجال اتز غير أن هذا الأخير استرد المدينة عنوة " فقاتلهم ثم دخل البلد عنوة وعمل كل قبيح وذبح القاضي والشهود وقتل بها نحو ٣٠٠٠ نفس "[١] .

وظلت المدينة تحت النفوذ العباسي إلى أن انتزعها السلطان الفاطمي وأعادها إلى نفوذه ، ومما يدمي له القلب أن الفاطميين قد استغلوا فرصة انشغال السلاجقة برد الغزو الصليبي عن مراكزهم وانتزعوا بيت المقدس من تحت سيطرتهم ، وللأسف الشديد فإنهم لم يتمكنوا من الابقاء عليه حيث زحفت ضدهم القوات الصليبية في العام التالي (٤٩٢) وطردتهم منه .

و- بقية المناطق الهامة :

شهدت المنطقة الساحلية كذلك صراعا مريرا بين الدولتين ففي زمن الأزمة التي مرت بها الدولة الفاطمية تمكن السلاحقة من السيطرة على هذه المنطقة وضمها إلى الشق العباسي وبقيت كذلك أكثر من عشر سنوات ، إلى أن استردها بدر الجمالي إلى الحظيرة الفاطمية سنة ٤٨٢ .

أما الجزيرة العربية فهي كذلك لم تنعم بالهدوء والاستقرار وكانت مسرحا للصراعات الدامية من أجل النفوذ والسيطرة مما ضعف القوى في المنطقة فأصبحت عاجزة عن صد أي عدوان خارجي .

أما آسيا الصغرى فإن توسطها بين بقية مدن الجبهة الإسلامية من ناحية وأوروبا مركز الصليبيين من ناحية أخرى .. هذا التوسط يعطيها أهمية خاصة ، فلو أنها كانت في المستوى المطلوب لتغيرت نتائج الحروب الصليبية .

وكان حكام آسيا الصغرى سلاجقة تربطهم صلة قرابة بسلاجقة الشام غير أن الطمع في توسيع النفوذ صبغ علاقتهم بلون الدم المسفوح ، وازدادت الأوضاع تأزما مع مرور السنين ، وجرت بينهما صراعات دامية . ذهب ضحيتها حاكم آسيا الصغرى ، وقد كان خليفته آنذاك صغيرا مما شجع صغار الأمراء في تلك المنطقة على تأسيس دويلات صغيرة خاصة بهم بل إن منهم من عمل على أن يحل محل الحاكم الراحل ..

وقد تحمل قلج أرسلان المتاعب التي خلفها له أبوه ودخل في صراع حربي مع الأمراء الطامعين، مما عرّض المنطقة لفترة قاسية من الضعف والتمزّق ، وزاد من خطورة هذا الوضع اتفاقه مع السنوات السابقة والمعاصرة للغزو الصليبي الأول ، فكانت فرصة سانحة للأعداء الذين اخترقوا الأناضول إلى الشام دون معوقات فعالة ..

ولم يع حكام آسيا الصغرى خطورة الصراع بينهم على المكاسب الإسلامية .. وهكذا تتضح لنا أبعاد الظروف السياسية التي كانت تعيشها الجبهة الإسلامية خلال السنوات الأربعين التي سبقت الغزو الصليبي وهناك خطان أساسيان لم تخل منهما حقبة من حقبات تاريخ هذه المناطق هما :

١- المعجم - ج ٣ ص ٢٦٩٠ .



- خط العلاقات السياسية التي لم تصف يوما بل كانت عدائية دائما وكثيرا ما كانت في شكل صراعات دامية .

- خط العلاقات الداخلية .. فقد اتسمت العلاقات داخل كل من هذه القوى بالتمزق والتطاحن حيث قتل الأخ أخاه والعم ابن أخيه ، كل ذلك من أجل السلطة وتوسيع النفوذ . وكذلك فقد كانت العلاقة بين القاعدة الشعبية وبين الحكام تأخذ شكلا عدائيا في أغلب الأحيان .

كل هذا ساهم في إضعاف هذه القوى واستنزف طاقاتها وجعلها في وضع لاتستطيع فيه الوقوف أمام جحافل العدوان الصليبي الزاحف .

ز- نقاط قوة في الصف المقابل :

وإذا كان الشرق الإسلامي على هذه الحال من الإنهاك والضعف فإن العدو الصليبي كان آنذاك يتمتع بعدة مواصفات قوية من أهمها :

١- اتفاق الامبراطور البيزنطي والصليبيين في أوروبا على مهاجمة الشرق الاسلامي ، وهذا يعني من ناحية قيام جبهة طويلة عريضة تمتد من آسيا الصغرى إلى أواسط أوروبا كما أنه يعني من ناحية أخرى تكتل الكنيسة الكاثوليكية في روما مع الكنيسة الأرثوذكسية في بيزنطة .

٢- القوة التي كانت تتمتع بها البابوية في ذلك الوقت حيث أصبحت قوة قائمة بذاتها غير خاضعة للسلطة الزمنية وقد تصاعد تأثير الكنيسة وتجاوز الجوانب الدينية الكهنوتية إلى مختلف شؤون الدولة وخاصة السياسية منها .

٣- تكتل مختلف الجماعات الصليبية وتناصرها في سبيل هدف واحد مشترك هو الزحف على الشرق العربي الاسلامي لمحوه من الوجود .

٤- سيطرة المسيحيين على المنطقة التي تعرف في التاريخ الاسلامي بمنطقة العواصم أو الثغور (الشام-جنوب الجزيرة..) وهذا يعني أن هذه المنطقة قد أصبحت منطقة ضغط ضد الجبهة الاسلامية بعد أن كانت ضد الامبراطورية البيزنطية .

٥- انهيار دولة المسلمين في الاندلس ايذانا بالسقوط حيث حل محل الأمويين عهد الطوائف الذي كان حافلا بالشقاق والصراع بين مختلف الطوائف الإسلامية فضعف أمرهم حتى أعطوا الضرائب لملوك الفرنجة ، وانتزعت المهابة منهم من صدور أعدائهم مما شجع أوروبا على الزحف اليهم .

٦- سيطرة المسيحيين على كل من قبرص وصقلية في البحر الأبيض المتوسط وقد قدمت هاتان الجزيرتان خدمات كبيرة للصليبيين أثناء الحروب الصليبية .

نعم لقد انتصر الصليبيون في الجولة الاولى ، ولكن ليس لأنهم تمتعوا بصفات التفوق من شجاعة وحضارة ومعرفة لفنون القتال ، بل لأن الخصم الذي واجهوه كان من التفكك والهزال بحيث لايستطيع أن يصمد لهبات النسيم العليل فمابالك ببعض الرياح العاتية[1] .

١- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية د. سهيل زكار ص٨ .





٨- الدعوة إلى الحروب الصليبية

في هذا الوضع المضطرب لابد أن يواجه المسيحيون مشكلة جوهرية(١) . هل يجوز لهم هذا النوع من القتال ؟ فهم يعتبرون دينهم دين رحمة وسلامة ومحبة ، والحرب لايقصد بها إلاالقتل والتحطيم ، والآباء المسيحيون الأوائل يعتبرون أن الحرب ماهي إلا اغتيال بالجملة ..

ولم تجز الكنيسة الشرقية ذلك واعتبرت أن من يرتكب جريمة القتل في الحرب لابد من منعه لمدة ثلاث سنوات من ممارسة التناول تكفيرا عن خطيئته .

أما وجهة النظر الغربية فمختلفة إذ أن القديس أغسطس ذاته أقر بأن الحرب يمكن أن تنشب بأمر الله . وقانون الفروسية الذي نما وترعرع في ظل الملاحم الشعبية جعل للبطل المحارب كرامة وهيبة ، في حين أن الذي يدعو للسلام لم ينل إلا السمعة السيئة .

ولم تحفل الكنيسة بهذه العاطفة غير أنها حرصت على أن توجه غريزة المقاتلة إلى مسالك تخدم قضيتها(٢) ، فالحرب المقدسة لصالح الكنيسة أضحت جائزة ، ومرغوب فيها ، إذ صرح البابا ليو الرابع في منتصف القرن التاسع أن كل من يموت في سبيل الدفاع عن الكنيسة سوف يلقى من الله الجزاء الأوفى ، كما أن البابا يوحنا الثامن عد ضحايا الحرب المقدسة من الشهداء وكذلك البابا نقولا الأول الذي قرر أن من وقع تحت طائلة الكنيسة لما ارتكبه من الذنوب لايجوز له أن يحمل السلاح من أجل قتال الكفار .

ثم ظهرت بعد ذلك دعوة للسلام من قبل رجال الدين أنفسهم .. لكنها لم تلبث أن بردت لأن الواقع العملي فرض عدم احترامها .

أ- الخطر الإسلامي وتبلور مفهوم الحرب عند المسيحيين :

رأى المسيحيون في المسلمين خطرا كبيرا على عقيدتهم وكيانهم خاصة وأن هؤلاء قد امتلكوا معظم المراكز المسيحية في الشرق ، كما سيطروا على أهم بلاد المسيحيين في الغرب . ففي نفس سنة ٩١٥ تم التعاون بين البابا يوحنا العاشر وبلاط القسطنطينية لتأليف عصبة من الأمراء المسيحيين لطرد المسلمين من قلعتهم الواقعة على جبل جازيجليانو .

واشتدت الحاجة بعد ذلك إلى تنسيق العصابات المحلية ولعل روما كانت أكثر إدراكا لضرورة التنسيق وازدياد بذل الجهد خاصة وأن نهب كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ لايزال ماثلا في ذاكرتها(٣) .

وقد كان المسلمون في اسبانيا يشكلون في القرن العاشر خطرا شديدا على العالم المسيحي حيث فقد المسيحيون ماحازوه من قبل . وفي عهد المنصور ٩٧٢ تعرضت أهم مملكة مسيحية في اسبانيا إلى هجمات المسلمين بل انهم استولوا على زامورا بجنوب مملكة ليون ، ونهبوا ليون ذاتها وأشعلوا الحرائق في شنق يعقوب كومبوستيلا التي تعتبرثالث المواضع التي يقصدها ، وفجأة توقف الهجوم الاسلامي المنظم ليبدأ الهجوم المضاد من قبل المسيحيين .


١- تاريخ الحروب الصليبية . ج١ ص ١٢٥ .


٢- مفس المرجع ج١ ص ١٢٧ .

٣- نفس المرجع ج١ ص ١٣٣ .



ففي سنة ١٠١٤ حاول سانكو أن يؤلف عصبة من الأمراء المسيحيين لقتال المسلمين ثم حصل على حليف بالغ الأهمية هو ديركلوني الضخم الذي حرص على الاهتمام براحة الحجاج وسلامتهم والاهتمام بشأن اسبانيا المسيحية .

واشتدت سيطرة الكلونيين على الكنيسة الاسبانية ولم يسع البابوية إلا أن تقر كل محاولة لمد أطراف العالم المسيحي في اسبانيا .

واتخذ القتال ضد المسلمين في اسبانيا صفة الحرب المقدسة ووضعها فلم يلبث البابوات أن صار لهم يد في توجيهها[1]. حيث بادر الاسكندر الثاني إلى أن يبذل الغفران لكل من قاتل من أجل حمل الصليب في اسبانيا وشرع البابا في تأليف جيش لمواصلة عمل راميروا الأول ملك أراجون الذي لقي مصرعه على يد المسلمين ، وقام جندي نرماني بخدمة البابا فجند العساكر في شمال ايطاليا ، وتولى جمع العساكر بشمال فرنسا شقيق ملكة أراجون ، على أن أضخم جيش كان الذي جمعه كونت اكيتانيا الذي تولى قيادة الحملة بنفسه ولم ينته القرن الحادي عشر حتى تحولت فكرة الحرب المقدسة إلى اتجاه عملي إذ أن الفرنسيين والعساكر المسيحيين لقوا التشجيع من السلطات الكنسية بأن يتخلوا عن منازعاتهم الصغيرة وأن يتوجهوا إلى أطراف العالم الاسلامي لقتال الكفرة وأن مايصيبونه من المكافأة هو على قدر ما يؤدونه من خدمة ، وأن لهم أن يحوزوا مايجري استرداده من الأراضي وأن ينالوا مزايا روحية

ب- البابا يستجيش عواطف الصليبيين ويأمرهم بغزو المسلمين :

لقد استجاب البابا جريجوري السابع لدعوة ميخائيل السابع الذي طلب منه النجدة ضد السلاجقة ، حيث أرسل البابا إلى ملوك أوروبا وأمرائها يوضح لهم سوء حالة المسيحيين في الشرق ولكن دعوته لم تلق أرضية مناسبة نظرا لكثرة المشاكل آنذاك ..

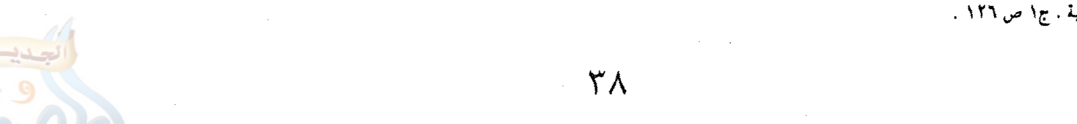
وتجددت هذه الدعوة مع أوربان الثاني الذي كان أصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبي الجديد ، إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها فضلا عما عرف به من بعد النظر والمقدرة في اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم .

فلم يكد يتولى منصب البابوية حتى فتح باب المفاوضات مع الامبراطور البيزنطي لتسوية المشاكل الواقعة بين الطرفين ، كما رفع قرار الحرمان عن الامبراطور مما أدى إلى شيء من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية .

وقد انتهز الامبراطور فرصة عقد مجمع ديني بشمال ايطاليا برآسة البابا سنة ١٠٩٥ وأرسل بعثة نجحت في اقناع البابا بأن السلاجقة لايهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء ، وأن قوتهم ضعفت بحيث تكفي ضربة قوية واحدة للإجهاز عليهم .

على أن البابا اختار أن يحيط مشروعه الجديد بالسرية وأخذ يقلب الفكرة في ذهنه ثم عقد مجمعا دينيا في كليرمونت في نوفمبرسنة ١٠٩٥ وجه فيه دعوته إلى المسيحيين الغربيين لنجدة اخوانهم ثم نادى البابا بالاسراع في تقديم النجدة بحيث يكون جميع المتطوعين على أهبة الرحيل إلى الشرق مع بداية فصل الصيف .

١- تاريخ الحروب الصليبية . ج١ ص ١٢٦ .





ففكرة الحروب الصليبية إذن نبعت من أوربان الثاني . وإن كانت قد دارت في ذهن جريجوري السابع ، إلا أنه لم يقدر لها أن تتبلور معه في واقع عملي .

وقد شهد هذا المجمع أكثر من ثلاثمائة من رجال الدين وكان قد ألقى خطابه حول الدعوة للحروب الصليبية في حشد ضخم حتى اضطروا إلى إقامة الكرسي البابوي على منصة مرتفعة تطل على الفضاء خارج الباب الشرقي للمدينة .

وكانت الاستجابة سريعة وقوية ، إذ تخلل الخطاب هتافات الحاضرين : (هكذا أراد الله) ولم يكد البابا ينتهي من خطابه حتى نهض أسقف لي بويه من مجلسه فركع أمام عرش البابا والتمس منه الاذن بأن يلحق بالحملة الصليبية ، وتزاحم مئات الحاضرين لينتهجوا نهجه . ثم ركع الكاردينال جريجوري على ركبتيه وأخذ يتلو بصوت جهوري قداس الاعتراف فتردده وراءه الجموع .

والجدير بالملاحظة أن أحدا من كبار الأمراء العلمانيين لم يكن حاضرا هذا المجمع ليبدي استعداده للمشاركة في تلك الحرب المنتظرة ضد المسلمين في الشرق . وقد أصدر البابا قرارا يقضي بأن كل من يشترك في الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه ، فضلا عن أن ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدة غيابهم .

وقد اثارت دعوة البابا حركة شعبية ضخمة(١) ترتبط عادة باسم بطرس الناسك غير أنه في الحقيقة لم يكن وحده ، بل كان هناك الكثيرون ممن يدعون للحرب المقدسة بين العوام .

ج- الدعاة للحرب المقدسة :

وقد طلب البابا من أساقفته أن يبشروا بالحرب الصليبية غير أن أشد التبشير تأثيرا هو ماقام به الرهبان ورجال الدين وكان من أنجح دعاتهم بطرس الناسك الطواف . وقد حاول منذ سنوات أن يؤدي الحج إلى بيت المقدس ، غير أنه تعرض للأذى من قبل الترك فاضطر للعودة دون أن يؤدي الحج .

وقد درج بطرس الناسك على السير حافي القدمين ولبس الرث من الثياب والتنقل على حمار ، وعلى الرغم من حقارة مظهره ، فأنه ادخر من القوة ماكان يثير الرجال ، وأحاط به جو غريب من السلطة والنفوذ حتى قيل عنه (مايردده بطرس أو يعقله يتراءى أنه من صنع الله)(٢) .

فلايكاد الناس يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيجتمعون في سرعة غريبة ويشرعون في الزحف صوب الشرق دون اعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيما جيدا من الناحيتين السياسية والحربية .

وكان بطرس قد بدأ رحلته سنة ١٠٥٩ من (برى) واجتاز (أورليانية) و (سامبانيا) إلى (اللورين) ومنها إلى مدن (الميز) و (آخن) إلى (كلن) حيث أمضى عيد القيامة ، وحشد من مريديه من أنفذهم إلى المناطق التي لم يكن بوسعه زيارتها .

وأينما توجه بطرس أو نوابه غادر الرجال والنساء دورهم كيما يتبعوه فلم يكد يبلغ كونيا حتى بلغ عدد أتباعه ١٥ ألف شخص وازداد عدد من انحاز اليه في المانيا .

١- الحركة الصليبية . (سعيد عاشور) ج١ ص ١٣٢ .

٢- تاريخ الحروب الصليبية . د. ستيفن رنسيمان ج١ ص ١٧٠ .

ولعل نجاح بطرس في دعوته للحروب الصليبة يرجع من ناحية الى الظروف السياسية والاقتصادية لشمال غربي أوروبا ومن ناحية أخرى فإنه يرجع إلى أن العصر كان عصر الرؤى والتنبؤات حيث ظن الناس أن بطرس يعلم الغيب واعتقد رجل القرن الوسيط أن القيامة الثانية وشيكة الوقوع فينبغي أن يكفر عن ذنوبه ، ومن تعاليم الكنيسة أنه أصبح التكفير عن الذنب بتأدية الحج وتشير التنبؤات إلى أنه ينبغي للأراضي المقدسة أن تعود إلى المسيحيين قبل هبوط المسيح للمرة الثانية .

وقد منّاهم بطرس بأنه سوف يخرجهم من حياة البؤس والشقاء إلى الأرض التي تفيض باللبن والعسل ، وسوف تكون الرحلة شاقة ولابد من التغلب على جند المسيح الدجال .

كل هذه العوامل مجتمعة ساعدت على نجاح الدعوة إلى الحروب الصليبية نجاحا منقطع النظير وذلك على جميع المستويات .





٩- كيف جندت الكنيسة أوروبا في الحرب

لم يكتف البابا أوربان الثاني بخطابه الذي ألقاه في مجمع كليرمونت إنما عمل على أن تكون الكنيسة هي المشرف والمخطط للحرب الصليبية ، كما عمل على تجنيد أوروبا كلها في هذه الحرب خاصة وأن كبار العلمانيين لم يحضروا المجمع ، ولذلك فقد سعى سعيا حثيثا لتبليغ الفكرة اليهم واقناعهم بها .
وكانت الخطوة الأولى في هذا المجال أن وضع البابا بالتعاون مع الأساقفة بعض القوانين للحروب الصليبية ، ومن أهم هذه القوانين مايلي :

- بذل التحلل من العقوبات الدنيوية عن الذنوب التي ارتكبها من اشترك بنية خالصة في الحرب المقدسة .
- حماية أملاك الصليبيين من قبل الكنيسة إلى حين عودتهم .
- أن يجعل المشترك علامة الصليب رمز التضحية والفداء وأن يخيط على كتف سترته صليبا أحمر اللون .
- كل من اتخذ الصليب ينبغي عليه أن يسرع بالمسير إلى بيت المقدس ، فإذا بادر بالرجوع عن فكرته أولم يتوجه مع الحملة تعرض للقطع من الكنيسة .
- لاينبغي لرجال الدين كالرهبان أن يتخذوا الصليب إلا بإذن الاسقف رئيس الدير .
- لايشترك في الحملة المتقدمون في العمر والمرضى .
- لاينبغي لأحد مطلقا أن يسير إلا بعد إذن مستشاره الروحي .
- ينبغي أن يتجهز كل فرد لمغادرة وطنه في عيد العذراء في السنة التالية .

ولكي يوضح البابا أنه لابد أن تخضع الحملة لإشراف الكنيسة قرر أنه لابد أن يتولى قيادتها أحد رجال الكنيسة ، وليكن مندوبه ، فاتخذ المجمع بالإجماع قرارا بأن يكون أسقف (لي بويه) قائدا للحملة ، وهو أول من استجاب للدعوة وله ارتباطات سابقة بالبابا أوربان الثاني .

ثم واصل البابا مسيرته لتجنيد أوروبا للحرب فغادر كلير مونت وأمضى عيد الميلاد في (اليبوج) حيث دعا الكاتدرائية إلى الاشتراك في الحروب الصليبية ثم سار نحو الشمال إلى وادي نهر اللواء بعد أن اجتاز بواتييه .

ثم وصل تور حيث عقد مجمعا وفي يوم واحد دعا المصلين إلى الاجتماع على ضفة النهر حيث خطب في الحضور بحماسة ودعاهم للمشاركة في الحرب المقدسة . ثم اتجه نحو الجنوب حتى بلغ تولوز التي اتخذها مقرا لقيادته لمدة شهرين ، وناقش مضيفه الكونت ريموند في فكرة الحرب الصليبية .

ثم رحل عائدا إلى إيطاليا ولم تكن رحلته مجرد إجازة ، إذ أمضى كل وقته في الاجتماع برجال الكنيسة وكتابة الرسائل مواصلا نشاطه من أجل الحروب الصليبية فبعث إلى أساقفة الغرب رسائل بقرارات مجمع كلير مونت ، وقد علمت بعد ذلك كل السلطات العلمانية رسميا بقرارات البابا ومن ليوج كتب البابا إلى جميع « المؤمنين » في الفلاندر يطلب إليهم الرجوع إلى قرارات مجمع كلير مونت ويسألهم التأييد .



وفي سنة ١٠٩٦ بينما كان البابا في نيم تلقى رسالة من الملك فيليب يشير فيها إلى إنضمام أخيه إلى الحملة الصليبية .

وكذلك فقد برهن كونت تولوز على نواياه الطيبة بأن تنازل عن كثير من أملاكه إلى دير سان جيل ، كما استجابت جمهورية جنوه لطلب البابا ووافقت على تقديم اثنى عشر سفينة كبيرة وسفينة نقل .

ولما عاد البابا إلى إيطاليا كان مطمئنا إلى نجاح خطته حيث بادر الناس إلى اتخاذ الصليب من أقصى الجهات من اسكتلنده ودانمرقه إلى اسبانيا حتى أن بعضهم لجأ إلى رهن أملاكه وأراضيه من أجل الحصول على المال اللازم للرحلة بينما تنازل آخرون للكنيسة عن كل مايملكون .

كما اشترك في الحرب عدد غير قليل من كبار النبلاء كيما يعطوها مساندة عسكرية قوية من أشهرهم : (كونت تولوز ، كونت فرماندوا ، كونت فلاندر ، دوق نرمنديا وصهره كونت بلوا ....) وهكذا نجحت الكنيسة في تجنيد أوروبا للحرب الصليبية نجاحا منقطع النظير حتى أنه شارك في الحملة رجال اشتهرت صلتهم بالامبراطور الالماني هنري الرابع ومن أشهرهم دوق اللورين الادنى الذي اتخذ الصليب مع أخويه .

وقد التف حول هؤلاء القادة كثير من صغار النبلاء وعدد كبير من رجال الكنيسة(١) ، وفي إيطاليا لقى البابا نجاحا منقطع النظير ، وما أن وصلت أنباء الحملة جنوب إيطاليا حتى استقبلها النرمان في حماس شديد وقد اتخذ بعض أمرائهم الصليب مع عدد كبير من أفراد أسرهم .

ولما عاد البابا إلى روما ازداد احساسا بالاطمئنان إلى أن الحملة الصليبية استكملت عدتها وتجهيزها .

وأخذ يتدفق على الشرق سيول مستمرة من الحجاج لم يتول أحد قيادتها ولم يجمعها نظام وكان البابا يأمل في أن يصل هؤلاء الحجاج وأتباع بطرس سالمين إلى القسطنطينية حيث ينتظروا مندوب البابا والقادة العسكريين فيدخلونهم في صفوف الجيش المسيحي الكبير . ولكنهم شردوا وشتتوا قبل الوصول ، ومن وصل منهم كان في غاية الإنهاك والتعب فأجهز عليهم المسلمون ..

وهكذا يتضح جليا أن البابا تمكن من تجنيد أوروبا في الحرب المقدسة بكافة أصنافها : العامة والنبلاء والعلمانيون ، وحتى الأمراء والملوك بل وحتى المجرمون وقطاع الطرق .... وقد ساعد على ذلك نشاط رجال الكنيسة آنذاك وسيطرتها على الغرب المسيحي وضعف الامبراطورية في الشرق .

١- تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص١٦٨ .



١٠ - الحملة الصليبية الألمانية

أحدثت هزيمة الصليب في حطين ، ثم سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين رد فعل عنيف في الغرب الأوروبي الذي أدرك أخيرا إهماله في عدم الاستجابة للنداءات المتكررة التي أصدرها الصليبيون بالشام في السنوات الأخيرة .

ولم يلبث كونراد قائد الصليبيين أن أرسل جوسياس رئيس اساقفة صور إلى غرب اوروبا في أواخر صيف ١١٨٧ ليطلب من البابوية وملوك الغرب وأمرائها النجدة العاجلة . وقد اتصل بالبابا أوربان الثالث وشرح له حقيقة موقف الصليبيين بالشام ، وقيل أنه مات من أثر الصدمة عندما سمع تلك الأخبار المحزنة ، وبادر البابا الجديد جريجوري الثامن بإرسال كتاب إلى كل من ملك أنجلترا وملك فرنسا وامبراطور ألمانيا ، يستحثهم جميعا على أن يتناسوا مابينهم من خصومات ويعبئوا قواتهم ضد المسلمين .

ولما توفي جريجوري الثامن أسرع خليفته كليمنت الثالث للاتصال بفريدريك أمبراطور ألمانيا في الوقت الذي انتقل فيه جوسياس إلى الغرب لمقابلة ملكي فرنسا وانجلترا[١] .

أ- مسيرة الحملة الالمانية :

إذا كان يصعب على كل من ملك فرنسا وملك انجلترا أن يتناسيا الاحقاد التي بينهما فإن امبراطور المانيا كان سريع الاستجابة على الرغم من كبر سنه فتحرك في ماي سنة ١١٨٩ صحبة ثاني أبنائه فردريك أمير سوابيا على رأس جيش منظم كبير قدره بعض المؤرخين بمائة ألف محارب سالكا الطريق البري إلى القسطنطينية عبر هنغاريا .

وقد قوبلت الحملة الالمانية في رحلتها الطويلة الشاقة بالود حينا وبالعداء حينا آخر ، فقد سهل لها ملك المجر كل الوسائل حتى عبرت بلاده ، كما أن سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان الثاني قد عمل على تأمين الطريق لهم وبعث معهم الأدلاء ليرشدوهم حتى حدود أرمينيا الصغرى . وكذلك فإن ليو الثاني أمير أرمينيا قد قدم لهم الكثير من التسهيلات والمساعدات[٢] .

وفي المقابل فقد سجل التاريخ أن الامبراطور البيزنطي قد أظهر عداءه للامبراطور الألماني غير أن هذا العداء لم يعرقل زحف القوات الألمانية .

ومن ناحية أخرى فإن هذا العداء قد أدى إلى قيام علاقات ودية بين البيزنطيين وصلاح الدين متمثلا في تبادل الزيارات بين دمشق والقسطنطينية ، كما أن الامبراطور البيزنطي قد زود صلاح الدين بكثير من المعلومات عن تحركات القوات الالمانية .

كما أن اخبار الحملة قد وصلت إلى مسامع صلاح الدين عن طريق التجار الايطاليين في الاسكندرية حيث أخذ الامبراطور البيزنطي يرسل الرسالة تلو الرسالة إلى صلاح الدين يعلمه بتحركات الصليبيين الألمان وأخبارهم[٣] .

١- الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٤٥ .

٢- الجبهة الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٦ .

٣- الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٤٧ .



ولم يستطع سلطان سلاجقة الروم أن يمنع قبائل التركمان في آسيا الصغرى من التعرض للصليبيين الالمان ، هذا فضلا عما صادفه الالمان من صعاب بسبب وعورة الطريق وقلة الزاد والماء ولما دخل الشتاء وتراكمت الثلوج اضطروا إلى أكل الدواب ولولا شدة فردريك وحزمه لافلت الزمام من يده .

وواصلت الحملة الالمانية مسيرتها ولم يلبث اقترابها من الشام أن أثار جوا من الرعب والفزع في البلدان الإسلامية(١) .

وفي ذلك الحين أخذ صلاح الدين يعد نفسه لمواجهة القوات الألمانية في البلاد الشامية فأعلن الجهاد المقدس ، وبعث إلى أمراء الشرق يطلب منهم المساعدة ، كما بعث في نفس المعنى إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله .

ويبدو أن الأخبار التي كانت تصل المسلمين عن الامبراطور الألماني وحجم جيشه قد لعبت دورا كبيرا في تضخيم الحملة والمبالغة في خطرها فقد بعث صاحب قلعة الروم إلى صلاح الدين يقول عن الإمبراطور الالماني : « ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين الفا وأما رجاله فلا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وهم أجناس متفاوتة وخلق غريبة وهم على قصد عظيم وجد وسياسة هائلة »(٢).

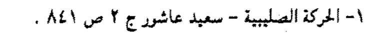
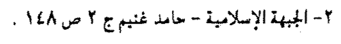
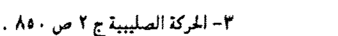
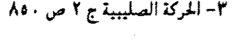
ب- فشل الحملة :

وفي ضوء مثل هذه الأخبار .. رسخ في الأذهان أن هذه القوات ستكتسح كل مقاومة تتصدى لها قال أبو الفدا : « بلغ المسلمين وصول ملك الالمان وقد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل واهتم المسلمون لذلك .. » .

أما صلاح الدين فقد أخذ يتابع تقدم الألمان في قلق ، وأرسل العيون للوقوف على أخبارهم كما أنه أسرع إلى إخلاء وتدمير بعض المراكز التي خشى احتلال الصليبيين لها واستخدامها في محاربة المسلمين(٣) ، وبينما كان صلاح الدين وأتباعه يعدون العدة لمقاومة الحملة الألمانية ، وفي الوقت الذي كان يخيم فيه على البلاد الاسلامية شعور باليأس وعدم القدرة على التصدي للغزاة الالمان .. في هذا الوقت العصيب جاءت الأخبار بوفاة الأمبراطور الألماني في شهر يونيه سنة ١١٩٠ غرقا في نهر صغير في قليقية وذلك في طريقه في طرسوس صوب أنطاكية .

وهكذا لم يعد هناك خطر من أن تقع بلاد الشام الإسلامية في حصار خطير نتيجة لضغط الصليبيين الالمان من ناحية الشمال والصليبيين الفرنسيين والانجليز من ناحية عكا ولذلك هلل المسلمون وكبروا فرحا بغرق الامبراطور الالماني .

ولم يلبث أن أفلت زمام الجيش الألماني الكبير عند وفاة قائده ، فاختل نظامه وعجز فردريك السوابي ابن الإمبراطور الراحل عن السيطرة على الجند بل أن ليو الثاني أمير أرمينية لما أحس منهم بذلك الضعف ، طمع فيهم حتى أنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وخرج بعد ذلك أهل حلب وجنودها إلى طريقهم والتقطوهم فكان الواحد يأسر جماعة منهم وهانوا في الأنفس بعدما كان المسلمون

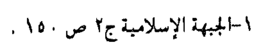

١- الحركة الصليبية - سعيد عاشور ج ٢ ص ٨٤١ .

٢- الجبهة الإسلامية - حامد غنيم ج ٢ ص ١٤٨ .


٣- الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٥٠ .

قد تهيبوا منهم هيبة عظيمة ، وبيعوا في الأسواق بالثمن البخس(١) .

وهكذا تمزق الألمان ، فعاد بعض أمرائهم إلى أنطاكية ومعهم جثمان الامبراطور ولم يلبث أن تعرض هذا الفريق الأخير لوباء شديد ويروى أن صاحب انطاكية لما أحس بضعف الأمير فردريك ومرضه ، التقطه إلى أنطاكيا طمعا في أن يموت عنده فيأخذ ماله(٢) على أن فريدريك لم يمت فتبرم أمير أنطاكيا بأولائك الألمان وثقلت عليه وطأتهم فزين لهم مهاجمة حلب . ولكن فريدريك فضل أن يتجه برجاله صوب عكا لمشاركة بقية طوائف الصليبيين في حصارها . غير أنه لم يمض وقت طويل حتى توفى هو الآخر وذلك في شهر يناير من السنة التالية وبموته فقد جنوده الكثير من تأثيرهم نظرا لافتقارهم إلى القيادة(٣) .

أما من وجهة النظر الإسلامية فيمكن القول بأن ما يطلق عليه اسم الحملة الألمانية قد أصبح غير ذي بال بعد وفاة فردريك سنة ٥٨٦ .

وهكذا يتضح أن الحملة الألمانية التي ضخم من شأنها ونسجت الأساطير حول قوتها لم يكن لها من التأثير أكثر من أي قوة أخرى من القوى المتعددة التي وفدت من أوروبا لكي تساند الصليبيين المحليين


١-الجبهة الإسلامية ج٢ ص ١٥٠ . ٢- الحركة الصليبية - سعيد عاشور ج ٢ ص ٨٥١ . ٣- الجبهة الإسلامية - ج ٢ ص ١٥١ .





١١- الإدارة البابوية وعقائد الكنيسة السياسية والدينية إبان الحروب الصليبية

تغلبت في هذا العصر الروح الدينية والتعلق بالحياة الآخرة ، فخضع الناس لما يمثل العالم الآخر من سلطة دينية فالحرب المقدسة ليست إلا نوعا جديدا من الخلاص وطريقا مؤديا إلى السماء.

فمن الناحية السياسية تعتبر الحروب الصليبية السياسة الخارجية للبابوية لما تقوم به من توجيه رعاياها المخلصين إلى الحرب المسيحية التي تخوضها ضد أعدائها .

وقد اعتبرتها فرصة للمضي في تحقيق سيادتها المباشرة لنشر المسيحية في كل العالم المعروف آنذاك ولبسط نفوذها على الشرق والغرب بزيادة ممتلكاتها وسيطرتها على بيت المقدس الذي يؤمه الحجاج المسيحيون من كل مكان .

وقد اهتمت المجالس الدينية بسن تشريعات ووضع قواعد للأمن من أجل المحافظة على سلام الله وتألفت هيئة تنفيذية في كل مقاطعة للمحافظة على السلام . كما وضع نظام الفروسية للتكريس الديني للنزاعات الحربية .

فالحرب الصليبية يمكن اعتبارها مرحلة من مراحل الإصلاح الديني للمقاتلين من العلمانيين ورد فعل ضد الشرق الإسلامي واستجابة لشكايات حجاج بيت المقدس[١] .

أما من الناحية الدينية فقد وضعت البابوية في أذهان المسيحيين أن الحروب الصليبية هي وسيلتهم للخلاص من ذنوبهم والفوز برضوان الله .

ولهذا ارتبطت هذه الحروب المقدسة بتطور مبدأ التوبة التي ينبغي اداؤها على أنها شرط للقبول في القداس .

وقد قررت الكنيسة أن التوبة تقع أيضا بالحج فازداد مسير الحجاج إلى بيت المقدس بشكل مهول، وقررت الكنيسة كذلك أن من يشترك في الحرب المقدسة فقد تحلل من كافة ذنوبه ، ونال الخلاص التام

أما عن التنظيم الكنسي في بلاد الشام فيلاحظ أن الوضع جرى منذ القرن الرابع للميلاد على أن يكون بتلك البلاد كرسيان بطريقيان كبيران ، أحدهما في بيت المقدس والآخر في أنطاكية وقد استمر هذا الوضع سائدا في العصر الصليبي . أما بطرق بيت المقدس فقد ضعف مركزه أمام الملك بعد الفشل الذي مني به دايمبرت وعندما يخلو منصب بطرقية بيت المقدس كان رجال البطرقية ينتخبون اثنين للمنصب يختار الملك أحدهما . ويتبع بطرق بيت المقدس خمسة من رؤساء الاساقفة في صور وقيسارتي والناصرة والكرك وبصرى ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة .

أما بطرق أنطاكية فكانت تتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها بمعنى أنه كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس وطرطوس وجبلة والبارة .

١- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس .. حسن حبشي ص ٧٠ .



وقد شهدت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عديدا من الهيئات الدينية أهمها الفرسان وخاصة الاستبارية والداوية . وقد نميا بشكل ملفت للنظر في القرن الثاني عشر حيث زادت أملاكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو ، والنهب حتى صارتا على درجة كبيرة من القوة واتساع النفوذ .

والواقع أنهما سدا فراغا كبيرا في حياة الصليبيين بالشام فمن الناحية الروحية كان هناك كثير من الاتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة أو الدين من المشاركة في محاربة المسلمين فوجدوا ضالتهم في تلك المنظمات التي جمع أفرادها بين التعبد والجهاد .

أما من الناحية السياسية فقد قام فرسان الاستبارية والداوية بجهد ضخم في حماية الكيان الصليبي بالشام والذود عنه ومحاربة المسلمين وغزو بلادهم وذلك في وقت قل فيه عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض أو الوفاة أو العودة إلى الغرب الأوروبي ، وشهد تاريخ الحروب الصليبية أن هؤلاء كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال ، ولولا ماقاموا به من جهود مضنية لانتهى أجل الكيان الصليبي بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة .

وقد قاموا أيضا بجهود كثيرة في مجال الخدمة الاجتماعية كمساعدة الحجاج وغيرهم من المحتاجين

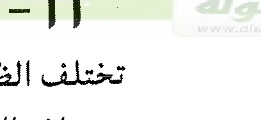
وقد كانت هذه الهيئات مستقلة تماما في بلاد الشام عن كل نفوذ سياسي ، ولاتعترف بالتبعية إلا للبابا في روما مباشرة ، مما جعل منها دولة داخل الدولة .

وتظهر سياسة الكنيسة وسيطرتها أيضا في المشاكل الكنسية حول مدينة صور ، فإن استيلاء الصليبيين على مدينة صور أثار مشكلة حول تبعية كرسي صور وهل يتبع هذا الكرسي بطرقية بيت المقدس أم أنطاكية ، فوفقا للنظام الكنسي البيزنطي في القرن الحادي عشر كانت صور مركزا لرئيس أساقفة يتبعه أساقفة عكا وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وأنطرطوس ، وكان هؤلاء جميعا وعلى رأسهم رئيس أساقفة صور يتبعون بطرق أنطاكية لابطرق بيت المقدس ، ولكن استيلاء مملكة بيت المقدس على صور ووجود بطرق بيت المقدس على رأس تلك الجيوش التي انتزعت صور من المسلمين ، جعل بطرق بيت المقدس يطمع في جعل صور خاضعة لاشرافه لا لإشراف بطرق انطاكية. أما رؤساء أساقفة صور أنفسهم فقد رفضوا أن يرتبطوا بأحد الطرفين المتنازعين ، على أساس أن البابا وحده هو الذي يملك حق الفصل في النزاع ، وبذلك ظل رؤساء أساقفة صور يتمتعون باستقلالهم دون أن يعترفوا بالتبعية لبيت المقدس أو لأنطاكية .

وبقيت المشكلة مطروحة إلى أن تدخل البابا فحل القضية بشكل ارتاح له الجميع . وبعد ذلك عقد المندوب البابوي مجمعا كبيرا في بيت المقدس حضره زعماء الكنيسة الكاثوليكية في مختلف الامارات الصليبية ، وترجع أهمية ذلك المجمع إلى أن جريجوري الثالث رئيس الكنيسة الارمينية اشترك فيه .. مما اكسب المجمع أهمية سياسية خاصة . فكما أن ملكية بيت المقدس عملت على جمع شمل القوى الصليبية في الشرق الادنى تحت رايتها ، فكذلك عملت الكنيسة الكاثوليكية في الشام على توحيد المسيحيين الشرقيين تحت زعامتها .

وهكذا يظهر لنا أن البابوية كانت تدير بكل حزم دفة الحروب الصليبية وتوجهها وفق معتقداتها السياسية والدينية .





١٢- اندحار الغزاة والعوامل التي ساعدت على النصر

تختلف الظروف التي مرت بها الجبهة الإسلامية عقب وفاة قلاون عن تلك التي مرت بها عقب وفاة بيبرس وصلاح الدين ، اللذين منيت الجبهة الإسلامية عقب وفاتهما بسلسلة من التطورات الداخلية كادت تؤدي إلى انشقاقها وقد أدت فعلا إلى تجميد العمل الإسلامي لفترة من الزمن .

أما عقب وفاة قلاون فلم تتعرض الجبهة الإسلامية لشيء من ذلك ، حيث ظلت حركة الجهاد نشيطة ووصلت الجبهة الإسلامية إلى غايتها في وقت قصير .

ولعل ذلك يرجع إلى شخصية خليفة قلاون من ناحية والأهم من ذلك إلى الحالة التي كانت عليها حركة المقاومة ، فبينما كانت حركة المقاومة وقت وفاة بيبرس تمر بفترة من الهدوء نتيجة للمهادنات مما هيأ للمشاكل الداخلية أن تطفو على السطح أما قلاون فقد توفى وهو في الطريق إلى فلسطين من أجل القضاء على الوجود الصليبي في الجنوب وهو في نفس الوقت آخر مظاهر العدوان الصليبي في الشرق العربي الإسلامي . وبالتالي لم يكن يوجد متسع لأمر آخر سوى مواصلة الحركة الجهادية[١] .

وكذلك هناك فرق بين الفترتين في حجم العدو ، ففي الوقت الذي توفى فيه بيبرس كان الوجود الصليبي يتكون من كونتية طرابلس في الشمال ومملكة عكا في الجنوب ، أما عند وفاة قلاون فقد أصبح الوجود الصليبي محصورا في مملكة عكا وحدها .

وقد واكب تقلص حجم الوجود الصليبي تقلص في درجة قوته فبدت الغاية الأخيرة للجبهة الإسلامية قريبة المنال مما حفز العزائم إلى الترفع عن الأغراض الشخصية والانطلاق على طريق مواصلة الجهاد ضد الصليبيين .

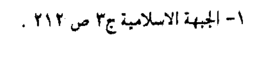
أما بالنسبة للمغول فإن العداء بينهم وبين الجبهة الإسلامية كان قد تجمد بل قد جرت محاولات للتقريب بين هؤلاء المغول والجبهة الإسلامية ، فأصبحت الظروف مهيأة أمام الجبهة الإسلامية لكي توجه ضربتها الأخيرة ضد الصليبيين .

أ- سقوط عكا آخر معاقل الكيان الصليبي في بلاد الشام :

وفي سنة ٦٦٦ سقط الوجود الصليبي في أنطاكية وفي سنة ٦٨٨ سقطت طرابلس الصليبية وبذلك انحصر الوجود الصليبي في عكا أو في الجنوب وأصبح هو الغاية التي اتجهت لها كل جهود الجبهة الإسلامية .

وقد سجل التاريخ ثورة صليبيي عكا سنة ٦٨٩ ضد التجار المسلمين وقتلهم فاشتد غضب قلاون وكتب إلى البلاد الشامية للاستعداد لغزو الصليبيين ولكنه توفي قبل إنهاء المسيرة إلى عكا . وخلفه ابنه الاشرف الذي بدأ من حيث انتهى والده بعد أن تخلص من بعض مناوئيه وبذلك أصبح الطريق أمامه مفتوحا للنضال ضد الصليبيين فهيأ جيوشه واتجه بها إلى عكا .

أما عن القوة الصليبية فقد استقبلت عكا في آخر ١٢٩٠م بعض متعصبي الصليبية في أوروبا وإلى جانبهم حشد الداوية الاستبارية كل رجالهم وأرسل الملك هنري عساكر قبارصة كما فرضت السلطات


١- الجبهة الاسلامية ج٣ ص ٢١٢ .



الصليبية تجنيد كل قادر على حمل السلاح من سكان عكا ليشترك في الدفاع عنها .

وعلى الرغم من كثرة هذه العناصر وتنوعها فإنهم في مجموعهم كانوا قلة بالنظر إلى القوات الإسلامية الزاحفة .

لقد كان الجانبان يشعران بخطورة هذه المعركة فالصليبيون يشعرون بأنها معركة حياة أو موت فهم بقايا الكيان الصليبي المتداعي ، ومدينة عكا هي الرمز الأخير لدولة صليبية كانت في يوم ما قوية ومرهوبة الجانب ، أما المسلمون فكانوا يرون آمالهم وآمال أسلافهم قاب قوسين أو أدنى ، انها وراء هذا السور المزدوج الذي يحمي المدينة الصليبية .

وقد ضربت القوات الإسلامية الحصارعلى المدينة لمدة أربعة وأربعين يوما كان القتال فيها متبادلاً بين الطرفين وفي فجر يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى شن المسلمون هجومهم الحاسم والذي ترتب عليه نجاحهم في اقتحام المدينة[1] ولم ترتفع الشمس حتى علت الصناجق الإسلامية على أسوار عكا ، وهرب الفرنج في البحر وهلك منهم خلق كثير في الإزدحام ، والمسلمون يقتلون ويأسرون ، فقتلوا مالايحصى عدده كثرة وأخذوا من النساء والصبيان مايتجاوز الوصف . وبعد دخول المدينة وجد المسلمون بعض العوائق التي أزاحوها في طريقهم ، وهكذا سقطت عكا عاصمة مملكة بيت المقدس آخر الكيانات الصليبية وحاضرة أزهى الممالك الصليبية في الشرق العربي الإسلامي .

ويعتبر سقوط عكا تتويجا للجهود المضنية التي بذلتها أجيال الجبهة الإسلامية على مدى قرنين من الزمان .

وإلى جانب عكا توجد عدة مواقع كان من الضروري تصفيتها حتى يصح القول بأن الجهاد الإسلامي قد وصل إلى غايته واستكمل مهمته[2] مثل صور التي ماإن شارفت القوات الإسلامية المدينة حتى هرب حاكمها واستسلمت بدون مقاومة ، وكذلك الحال بالنسبة لأهل صيدا ، وواصلت القوات الاسلامية زحفها صوب الجنوب .

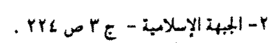
وهكذا ونتيجة لعمليات التصفية التي قام بها المقاتلون المسلمون لم يمض وقت طويل حتى اختفى الوجود الصليبي على الساحل الشامي ، وأخيرا ومع نهاية القرن السابع الهجري أسدل الستار على قصة الصراع الذي اتخذ من الشرق العربي الإسلامي مسرحا له وتعتبر قصة هذا الصراع من أطول قصص الصراع في التاريخ . ان لم يكن أطولها على الإطلاق .

ب- عوامل اندحار الغزاة :

(١) عوامل تعود إلى الصليبيين أنفسهم :

لقد أعلنت أوروبا كلها العداء للشرق الإسلامي واختارت الوقت المناسب لتعلن العداء وأهدافه ووضعت كل إمكاناتها وكل شبابها في خدمة هذا الهدف ولكن الفشل كان نصيبها وآبت من هذه الجولة الطويلة بخفي حنين .. ويختلف المؤرخون في اعتبار الأسباب التي أدت لهذا الفشل الذريع والتي قضت دون نتيجة على عشرات الآلاف من القتلى والتي دمرت الكثير من العمران طيلة قرنين كاملين من الزمان،

١-الجبهة الإسلامية ج٣ ص ٢١٩ .


٢- الجبهة الإسلامية - ج ٣ ص ٢٢٤ .



ولعل اختلاف المؤرخين لاقيمة له في هذا الباب إذ ليس هناك مانع من أن تكون العوامل التي ذكروها قد تفاعلت مع بعضها لتؤدي إلى فشل أهل الصليب ومن أهم تلك العوامل مايلي :

١- ان الكنيسة كانت تضع مصلحتها فوق كل مصلحة(١) وكان لايهمها النصر بقدر مايهمها أن تجني هي ثماره . ومن هنا فإنها لم تبارك النصر الذي حصل عليه فردريك الثاني ، بل أعلنت حرمانه وحاصرت روحيا الأماكن المقدسة فتوقف سيل الحجاج إليها طيلة إقامته بها .

٢- ان أمراء الإقطاع اهتموا بمصالحهم الخاصة وتكوين إمارات يحكمونها ويورثونها اولادهم اكثر من اهتمامهم بالصالح العام الاوروبي المسيحي فلم يكن الصليب إلا وسيلة للتغرير بالجماهير كأنه غطاء يخفون به أطماعهم الشخصية ولكن هذا الاحساس اتضح لكثير من المسيحيين فقلل من حماسهم للحرب

٣- إن التجار الأوروبيين الذين كان الهدف الاقتصادي هو أهم باعث لهم على خوض هذه الحروب والتشجيع عليها لم يتورعوا عن إقامة معاهدات تجارية مع المسلمين في كثير من الحالات وآثروا السلامة وخذلوا ذويهم من المسيحيين مادام هدفهم يتحقق بذلك .

٤- زحف التتار المدمر الذي بدأ على العالم الإسلامي في مطلع القرن الثالث عشر وراح يهدم المدن ويلهب السيوف في رقاب المسلمين ويدمر الحضارة الإسلامية وقد كان الصليبيون يعملون لنفس الغاية فلما رأوا أن زحف التتار يحقق لهم نفس الهدف أغناهم ذلك عن مواصلة بذل الجهد من جانبهم فلم يقدم الاوربيون بعد ذلك مزيدا من الدعم للصليبيين .

٥- أدرك غرب أوروبا أن الثمن الذي يدفعه في الحروب الصليبية باهظًا لايعادل الفوائد التافهة التي حصل عليها فبدءوا يوجهون نشاطهم إلى ميادين أخرى أجدى وأنفع لهم في حين رأى البابوات أن يستغلوا ماتبقى من حماسة دينية عند الغربيين في تحقيق مآربهم السياسية وهكذا تركت الأراضي المقدسة لتصبح ميدانا للتنافس التجاري .. هذا عدا ما استمر بها من منازعات بين الامراء اللاتين وبين الهيئات الدينية العسكرية .

٦- ان ما آل إليه أمر الصليبيين في الاراضي المقدسة من ضعف وانحلال وتشتت كان خير مشجع لسلاطين المماليك على الاجهاز عليهم .

٧- ومن العوامل التي ساعدت على اندحار الصليبيين ماظهر من سوء نظامهم وعدم توحيد قيادتهم وكثرة المنازعات والحروب فيما بينهم وعدم تورعهم عن السلب والنهب أثناء زحفهم فوق ماكانوا عليه من عدم تعاون مع الدولة البيزنطية بسبب تخوفها من نواياهم وأطماعهم .

٨- ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى فشل الصليبيين هو تغير الأوضاع في أوروبا نفسها ، فالحرب الصليبية نجحت أول أمرها عندما كانت أوروبا تربطها فكرة واحدة هي فكرة الامبراطورية العالمية والكنيسة العالمية ، ولكن التفكك السياسي الذي أصاب وحدة الغرب نتيجة لظهور الملكيات القومية المتنافسة كان العامل الرئيسي في تصدع الجبهة الصليبية كما ظهر ذلك بوضوح في الخلاف بين فيليب ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك أنجلترا أثناء الحملة الثالثة .

١- موسوعة التاريخ الاسلامي - د. احمد شلبي ج٥ ص ٦٢٤ .





(٢) عوامل ترجع إلى الجبهة الإسلامية :

من أبرز وأخطر السلبيات التي كان يعاني منها الشرق الإسلامي في الفترة السابقة مباشرة والمصاحبة للغزو الصليبي هو الافتقار إلى احدى الروابط التي من الممكن أن يجتمع حولها ويتخذون منها نقطة انطلاق لقوتهم وتوحيد صفوفهم وتنظيم جهودهم .

وإذا رجعنا إلى بداية يقظة المسلمين هذه اليقظة التي تبلورت فيما أصبح يعرف بالجبهة الإسلامية نجد أنها انطلقت من العقيدة الإسلامية لامن رابطة سواها(١) .

ويعتبر تأسيس عماد الدين زنكي لدولته تجسيدا عمليا لبداية يقظة الشعور الديني . فهذه الدولة إذن قامت على أساس محدد هو الجهاد ضد الصليبيين وقد استطاع عماد الدين ورجال دولته أن يستخدموا العقيدة الإسلامية للتأثير على السلاطين السلاجقة وحملهم على الإسهام في حركة المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين ولعل من أبرز ذلك اسقاط الوجود الصليبي في (الرها) .

وفي عهد نور الدين محمود بن عماد الدين وخليفته تطورت الرابطة الدينية بشكل حثيث وشملت كل أبناء الشرق العربي الإسلامي ، ولاأدل على ذلك من الحيلولة دون وقوع دمشق في قبضة الصليبيين ومن استجابة كل الجبهة لنداء نور الدين كلما طلبهم .

وفيما يلي نص واضح يبرز كيف أن الشعور بوحدة الهدف ووحدة المصير قد تغلغل في نفوس كل ملوك العالم الإسلامي وامرائه : (دبر ساور الوزير المصري مؤامرة للتخلص من أسد الدين شيركوه فحذره ابنه الكامل قائلا : والله لئن عزمت على هذا لأعرفن أسد الدين ، فقال له أبوه : والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعا . فقال الابن : لئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج)(٢) .

وما قيل في الدولة الزنكية يقال أكثر منه في الدولة الأيوبية حيث تم توحيد الجبهة الإسلامية لمقاومة الصليبيين وغابت النزعات الفردية والمصالح الشخصية ليحل محلها الشعور بضرورة العمل من أجل الصالح الإسلامي والشعور بأن المسلمين كيان واحد .

غير أنه في نهاية الدولة الأيوبية لوحظ انتكاس للمستوى الرفيع الذي وصلت إليه قوة الرابطة الدينية غير أن الجماهير الإسلامية كانت بالمرصاد لمن يحاول أدنى محاولة التشتيت الصف والعمل من أجل أغراض شخصية ، ويظهر ذلك جليا في المعركة التي قامت على مشارف غزة بين قوات الملك الصالح من ناحية وقوات الصليبيين والصالح بن اسماعيل من ناحية أخرى . جاء في المصادر : (وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر ومالوا جميعا على الفرنج فهزموهم وأسروا منهم خلقا لايحصون)(٣) .

ثم بعد ذلك ظهرت دولة المماليك التي تعتبر ترجيحا للاتجاه الذي كان يسير عليه عامة المسلمين وهو الشعور بالرابطة الدينية العميقة بين أبناء الجبهة الإسلامية .

ورغم أن الجبهة في عهدهم قد ابتليت بالمغول والصليبيين في الوقت نفسه ، إلا أن قوة الرابطة الدينية وتوحد الجبهة قد حال بفضل الله دون سقوط الكيان الإسلامي لقمة سائغة في أيدي الاعداء.

١-الجبهة الإسلامية ج٣ ص ٢٢٧ . ٢- الجبهة الإسلامية - ج ٣ص ٢٤٧ . ٣- الجبهة الاسلامية - ج٣ ص ٢٥١ .





ولعل لقطة صغيرة من معركة عين جالوت تؤكد التفاف المسلمين حول عقيدتهم : (حينما احتدم القتال وتزعزع مركز المقاتلين المسلمين القى القائد المسلم - المظفر قطز - خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : واإسلاماه ياالله انصر عبدك قطز على التتار) .

وبهذه الروح وبهذا الدعاء تغير موقف المسلمين وكان ان انتصروا في هذه المعركة التي تعتبر بحق من المعارك الحاسمة في التاريخ . وبعد أن أصبحت هزيمة المغول أمرا مؤكدا نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه بالتراب وقبل الأرض وصلى ركعتين شكرا لله تعالى .

وبعدها تعمق الارتباط بالعقيدة الإسلامية وقد تجلت هذه الحقيقة بأبعادها المختلفة في عهد الظاهر بيبرس والمنصور وقلاون .. وكان ذلك على مستوى الزعامة وعلى مستوى العامة على حد سواء ..

وهكذا يتضح لنا أن الرابطة الدينية كانت الاساس الذي قامت عليه الحياة في الجبهة الإسلامية والأساس في توحيد صف حركة المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين وانه بالقوة الفعالة للعقيدة الإسلامية وصلت حركة الجهاد إلى نهاية شوطها الطويل حيث اندحر الغزاة وانتصر الحق على الباطل .





إن التاريخ يعيد نفسه ..فمابال المسلمين لايفقهون ؟

كانت هناك حروب صليبية رهيبة دامت قرنين من الزمان ، داهمت شرقنا الآمن ثم انحدرت عنه مدحورة أمام جحافل المسلمين وهي تجرجر أذيال الخيبة والفشل . ويومئذ قال مؤرخ بسيط : لقد انتهت الحروب الصليبية . ورد عليه مؤرخ محنك : لقد انتهت الجولة الأولى أما الحرب ذاتها فدونها والنهاية جولات وجولات .

ولقد صدق ماقاله المؤرخ العجوز حينما تغير الاسم وتبدل الشكل واختلف الإطار العام ولكن الجوهر بقي ثابتا راسخا بحيث عاد الصليبيون أول ماعادوا إلى الشرق الإسلامي بواسطة التبشير يبشرون بالصليب قليلا وبغير الصليب كثيرا . وينعمون بدخول القلاع الإسلامية والتوغل فيها وهي التي عزت عليهم قرنين من الزمان في الجولة الاولى أمام أعلام المسلمين الأشاوس .

عادوا وقد تغير التكتيك من أساسه والخطة من جذورها ، وبعد انتهاء الجولة الاولى بحوالي ستة قرون احتفل في لندن بعودة الماريشال اللنبي القائد الظافر الفاتح من (الحروب الصليبية) وتوجه زميله الفرنسي الجنرال غورو وكله غطرسة وخيلاء إلى قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي ليقول له على ملأ من الناس : "لقد عدنا ياصلاح الدين" ...

لقد تطورت الحروب الصليبية واتخذت شكلا جديدا خطيرا كما تطور الإستعمار وبدل من أقنعته وأساليبه وفي ظروف حالكة رهيبة رغم إرادة الأسلاف والجدود .

لقد عشعشت في الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط حركة واسعة النطاق للتبشير الثقافي يساندها تنافس دولي مقيت وصراع باغ دخيل وملايين من الملايين من وحدات العملة الصعبة وبرامج مدروسة وفق مخططات رهيبة بعيدة المدى .

ولم يصح شرقنا الطيب المغلوب على أمره إلا ليرى وحدته قد تمزقت وتبددت وحل محلها كيانات ضعيفة هزيلة بدأت تحت الاحتلال المباشر ثم استمرت تحت النفوذ الأجنبي غير المباشر .

وليرى أيضا أن الغاية التي من أجلها اشتعلت الحروب الصليبية قبل ثمانية قرون وهي انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين قد تحققت لهم ولو إلى حين ..

إن الحروب الصليبية كانت ومازالت حروبا دينية في جوهرها ودوافعها .. ولقد خاضها المسلمون في الجولة الأولى باسم الدين وتحت راية الإسلام فكتب الله لهم النصر المؤزر .

وعندما درس عباقرة الغرب أسباب هزيمتهم وجدوا أنه الإسلام الذي تمكن من قلوب أهله وعقولهم فراحوا يخططون للقضاء عليه وإزاحته من الميدان . ولهذا فانهم عندما قرروا أن يبدأوا الجولة الثانية فإنهم قد بدلوا الخطة والتكتيك .

وكان على رأس المخطط الذي وضعوه اقتلاع هذه الشجرة العملاقة التي يستظل بها المسلمون والتي



تتمثل في الإسلام الذي صمد أمام أعتى العواصف والأعاصير ولكن كيف يقتلعونها ؟

إنه السوس .. آلاف مؤلفة منه تسلطت على جذوع هذه الشجرة العملاقة لتنخر عروقها حتى تنهار .. وكان لهم ماأرادوا .. وكان السوس الذي اختاروه عبارة عن بدع وآفات أخلاقية خبيثة لئيمة وثقافات منحرفة مشوهة ومشبوهة وموجات متتابعة من الإنحلال الخلقي والعقائدي تصدر بطريقة منظمة مدروسة باسم المدنية والتقدم . موجة بعد موجة ترسل إلى شرقنا الإسلامي فتجرف بعض شبابه بعيدا عن شاطئ السلامة .

وفي غفلة من حماة الإسلام سحب من المسلمين شعارهم الذي انتصروا تحت لوائه .. وانتزع منهم سيفهم الذي واكبهم من نصر إلى نصر . واقنعوا باستعمال شعارات أخرى مصنوعة مهلهلة ركيكة لاتمت لأصالتنا بصلة .

الهانا الحاقدون المجرمون بشعارات غير دينية بينما استمروا هم في حربهم ضدنا باسم الدين وحسبك آخر تصريحات الرئيس اليهودي دافيد بن غوريون قبيل استقالته عندما قال : (إن كل يهودي لايهاجر إلى إسرائيل يعد خائنا كافرا بالدين اليهودي) .

وإذا فبعد أن كانت المواجهة تتم في جبهات مفتوحة يقتل الغازي الاجنبي ويخرب ويغتصب مثيرا في الأمة روح التحدي وعزة الكيان المغلوب ولايختلف المسلم فيه مع أخيه المسلم على كرامة خوضها وشرف جهادها أو على إجرام من يوالي الغزاة الدخلاء .

أما أساليب المواجهة اليوم وطرائقها فأصبحت تمارس أنواعا شتى من الحيل والمكر والدهاء حسب خطط مدروسة ومنظمة يجري العمل بها بتأن وتؤدة وتهدف على المدى البعيد إلى السيطرة على العالم الإسلامي كله وتدمير الإسلام في نفوس المسلمين من غير أن يشعروا أو ينتبهوا وكان من نتائج هذه المعركة الجديدة ما نراه ونلمسه من فوضى وسوء تدبير يجعلنا في مقدمة الشعوب غفلة وفي مؤخرتها وعيا وفطنة وإدراكا حينما أصبحنا نحارب الاستعمار بتنفيذنا لأهدافه ومخططاته . نعم رؤوس غربية ركبت على أجسام عربية . انه الغزو الفكري وهو أدهى وأمر من الغزو الاستيطاني .

ليت شعري أإلى هذا الحد فقدنا عقولنا وعدمنا مداركنا وأفهامنا وأضحينا كالأنعام أو أضل سبيلا ؟

ليت شعري أإلى هذا الحد .. ؟

يمضي تراث المسلمين موزعا	والمسلمون نواكس الأذقان
ما بين مصر إلى طرابلس إلى	عدن إلى القوقاز والبلقان
كر الصليب عليه كرة حانق	ضرم العداوة ناثر الشنآن

* * *

إنه العداء الصليبي التاريخي للإسلام فهل المسلمون يفقهون ويتدبرون ؟

إنها المؤامرات المزمنة ضد الإسلام فهل المسلمون يعقلون ويتفكرون ومن ثم يصلحون مناهجهم في الفكر والسلوك ؟

وأخيرا فإنه لن يقر لنا قرار ولن يصلح لنا حال ما لم نعرف طريق العودة .. الطريق إلى الله ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .



المراجع الأساسية

١- أضواء جديدة على الحروب الصليبية .	د. سعيد عبد الفتاح عاشور
٢- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس	ترجمه وقدم له د. حسن حبشي
٣- أوروبا العصور الوسطى	د. سعيد عبد الفتاح عاشور
٤- تاريخ الحروب الصليبية	ستيفن رنسيمان ترجمة السيد الباز العريبني
٥- تاريخ العصور الوسطى في أوروبا	د. نور الدين حاطوم
٦- الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية	د. حامد غنيم أبو سعيد
٧- الحروب الصليبية الأوروبية التاسعة	محمد الفرماني
٨- الحروب الصليبية الأولى	د. حسين حبشي
٩- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي	د. نظير حسان سعداوي
١٠- الحركة الصليبية	د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١١- الحروب الصليبية	انرنست باركر ترجمة السيد الباز العريني
١٢- علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر	د. عبد القادر أحمد اليوسف
١٣- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية	د. سهيل زكار
١٤- موسوعة التاريخ الإسلامي (الجزء الخامس)	د. أحمد شلبي
١٥- ميلاد العصور الوسطى	د. بانت موسى . ترجمة عبد الغزيز توفيق



الفهرس



